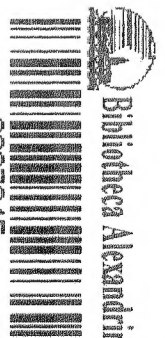


الأسلوبية .. و البيان العربي

تأليف

دكتور محمد عبد المنعم خفاجي دكتور محمد السعدى فرهود

دكتور عبد العزيز شرف



دار المصرية اللبنانية



جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م



طباعة • نشر • توزيع

١٦ شارع عبدالحق ثروت - تليفون ٣٩٢٣٥٢٥ - ٣٩٢٦٧٤٣ - فاكس: ٣٩٠٩٦٦٨ - برقية: دار خاتو - ص.ب: ٢٠٧٧ - القاهرة

AL-DAR AL-MASRIAH AL-LUBNANIAH

16 ABD EL KHALEK SARWAT St. P.O.Box 2022-Cairo-Egypt PHONE: 3936743-3923525 FAX: 3909618 CABLE DARSHADO

PRINTING — PUBLI SHING — DISTRIBUTION

الأسلمية .. و البيان العربي

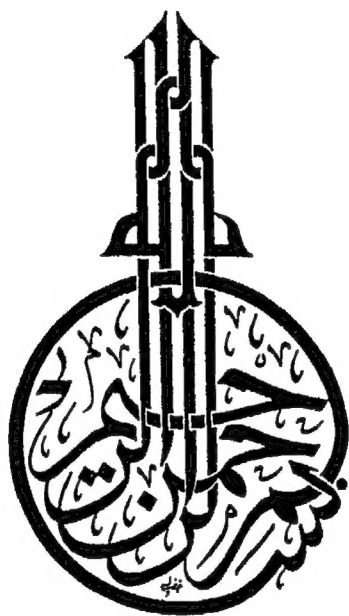
تأليف

دكتور محمد عبد المنعم خفاجي دكتور محمد السعدى فرهود

دكتور عبد العزيز شرف

الناشر

دار الفكر العربي



تصدير

هذا الكتاب دراسة للأسلوبية والبيان العربى على ضوء جديد ، يجمع بين القديم والجديد ، وبين الأصالة والمعاصرة ، وبين التقليد والتجديد .

وليس من شك فى أن الأسلوبية المعاصرة لا تكاد تختلف فى كثير عن نظرية النظم العربية التى وضع أصولها الإمام عبد القاهر الجرجانى فى كتابه النفيس : « دلائل الإعجاز » ، وحين صاغ عبد القاهر آراءه فى النظم لم يكن يعد عن فكرة اختلاف الأسلوب باختلاف ترتيب الكلام ، وجعل بعضه بسبب من بعض ، وكانت دراسات عبد القاهر فى التقديم والتأخير ، والذكر والحذف ، والتعريف والتكثير ، والإضمار والإظهار ، والقصر وعدمه ، والإيجاز والاطناب ، والتأكيد وعدمه ، وغير ذلك من وجوه المعانى ، وكذلك دراساته لأساليب الحقيقة والمجاز والتشبيه والتمثيل والاستعارة والكناية والتورية وحسن التعليل ، وغير ذلك من وجوه البيان واليديع ، كان ذلك كله عملا جديدا فى البلاغة العربية ، وتفصيلا واسعا للأسلوب وتحديدا قريبا من مفهوم الأسلوبية فى المذاهب الغربية الحديثة .

ولم يكن فكر عبد القاهر تقليدا لمذهب أو احتذاء لفكر الآخرين ، إنما كان تأصيلا جديدا لكل ما سبقه من أفكار البلاغيين والنقاد والأسلوبيين وكانت أحكامه البلاغية نتاجا لذوق أدبى مرهف ، صقله اطلاع واسع على الثقافات العربية وآدابها ، وقراءات عميقة فى شتى مصادر البيان العربى منذ عصر الجاحظ ومن تلاه من أمثال . ابن

قتيبة وابن المعتز وقدامة والآمدى وأبى الحسن الجرجاني صاحب الوساطة والباقلاني وغيرهم ..

ومن مذهب الجاحظ فى اللفظ والمعنى ، إلى مذهب البديع عند ابن المعتز ، إلى مذهب قدامة فى تحديد أصول النقد إلى مذهب الآمدى فى عمود الشعر ، إلى مذهب القاضى الجرجاني فى الاحتكام إلى القيم الفنية التراثية ، إلى مذهب الباقلاني فى تحديد أسباب إعجاز القرآن الكريم .

من كل ذلك وغيره من مذاهب النحويين واللغويين ، صاغ عبد القاهر فلسفته البلاغية . والتي تدور حول خصائص الأسلوب وبلاغته .

وحين سجل ابن سينا أفكار أرسطو فى الخطابة ، وفى الشعر فى كتابه الفلسفى الشهير « الشفاء » أفاد من ذلك الإمام عبد القاهر فائدة جُلّى فى كتابيه : أسرار البلاغة « ودلائل الإعجاز » كما يرى د . طه حسين فى مقدمته المشهورة لكتاب « نقد النثر »^(١) ، يقول د . طه : « عندما نقرأ أولهما - يعنى كتاب « أسرار البلاغة » نكاد نحزم بأن المؤلف - عبد القاهر - قرأ الفصل الذى عقده ابن سينا للعبارة وأنه فكر فيه كثيرا ، وحاول أن يدرسه دراسة نقد وتمحيص ، والواقع أن تصور القدماء للمجاز مضطرب غير مستقيم ، فابتدأ يوضح مبهمه ويجلو غامضه ، وقسم المجاز .. ويستمر الدكتور طه فى كلامة فيقول : « ولا يسع من يقرأ دلائل الإعجاز الا أن يعترف بفضل عبد القاهر وبما أنفق من جهد صادق فى التأليف بين قواعد النحو العربى وبين آراء أرسطو العامه فى الجملة والأسلوب »^(٢) .

وعبد القاهر لا يفوته أن يرجع إلى كل ما كُتب حول البلاغة من كتب القدماء ، وبين الكتب المترجمة من اللغات الأخرى ، وهو بذلك يجتهد كل الاجتهاد فى البحث والتفكير والاستنتاج ، ومن ثم جاءت آراؤه غاية فى سلامة الذوق وسلامة التفكير .

وحين نرجع إلى علم المعانى . نجد أن دراساته قريبة إلى الأسلوبية قربا كبيرا ، فإذا جئنا إلى « التقديم والتأخير » مثلا ، نجد أن هذا الباب هو . بحث عن فهم

(١) ص ٢٨ مقدمة « نقد النثر » للدكتور طه حسين طبعة عام ١٩٣٩ - القاهرة .

(٢) ص ٣ مقدمة نقد النثر د . طه حسين .

عبد القاهر للصياغة الأسلوبية المتمثلة في بلاغة الأسلوب ، وأسرار هذه البلاغة ، وكذلك يجيء عرضه للتشبيه والاستعارة والمجاز والكناية وبلاغتها ، فهو في ذلك يقف عند صياغة الأسلوب ، ودلالة هذه الصياغة نفسها على المعنى .

إن عبد القاهر في نظريته في النظم . لا يكاد يختلف عن مفهوم الأسلوبية ، وفن صياغة الأسلوب ، ودلالة هذه الصياغة على المعنى .

وقد تابع القدماء . أفكار عبد القاهر في صياغة الأسلوب ، وقسموا البلاغة إلى ثلاثة فنون : المعاني ، والبيان ، والبديع وهم في ذلك كله يبحثون مع عبد القاهر في الأساليب والفروق بينها ، وبلاغة كل أسلوب وخصائصه ، إنهم متابعون لعبد القاهر إنما يبنون أحكامهم الأدبية على قاعدة قوية من خصائص الأسلوب وبلاغته .

فعبد القاهر بذلك يُعدُّ أول باحث عن بلاغة الأسلوب ، وألوانه وخصائصه أوليس في ذلك كله ما يجعلنا نجزم جزماً قاطعاً . بأن بين الأسلوبية وفكر عبد القاهر الجرجاني في النظم صلة قوية وعلى الصلة المباشرة بين الأسلوبية وخصائص البلاغة العربية .

من أجل ذلك كله كان هذا الكتاب الذي نبحت فيه عن خصائص الأسلوب والأسلوبية في علوم البلاغة .

ونسأل الله المزيد من التوفيق ومن الصواب والسداد ، إنه أكرم مأمول ، وأجلّ مسئول ، وما توفيقنا إلا بالله .





الفصل الأول

الأسلوب والأسلوبية
فى ضوء النقد الحديث





منذ الخمسينات من هذا القرن ، أصبح مصطلح الأسلوبية Stylistics يطلق على منهج تحليلي للأعمال الأدبية ؛ يقترح استبدال « الذاتية » و « الانطباعية » في النقد التقليدي بتحليل « موضوعي » أو « علمي » للأسلوب في النصوص الأدبية .

والأسلوب يعرف « وفق الطريقة التقليدية بالتمييز بين ما يقال في النص الأدبي ؛ وكيف يقال ، أوبين « المحتوى » و « الشكل » . ويشار إلى المحتوى « عادة بالمصطلحات التالية : « المعلومات » أو الرسالة » Message أو « المعنى المطروح » ، بينما ينظر إلى الأسلوب على أنه تغييرات تطرأ على الطريقة التي تطرح من خلالها هذه المعلومات مما يؤثر على « طابعها الجمالي » أو على استجابة القارئ العاطفية » .

يقول « ابرامز » M.H. Ibrams في معجم المصطلحات الأدبية A Glossary of Literary Terms : إن افكار علم اللغة الحديث تستخدم للكشف عن السمات الأسلوبية أو « الخصائص الشكلية » التي يقال إنها تميز عملا معينا ، أو كتابا معينا ، أو موروثة أدبيا ، أو عصرا معينا ، وهذه السمات الأسلوبية قد تكون :

- صوتية : (الأنماط الصوتية للكلام ؛ أو الوزن أو القافية) أو
- جمالية : (أنواع التركيب الجملي) أو
- معجمية : (الكلمات المجردة ضد الكلمات المحسوسة ، التكرار النسبي للاسماء والأفعال والصفات) أو
- بلاغية : (الاستعمال المتميز للمجاز ، والاستعارة ، والصور وما إليها)^(١) .

وإذا كان مصطلح « الأسلوب » Le Style قد سبق مصطلح « الأسلوبية » La Stylistique إلى الوجود والانتشار فإن القواميس التاريخية في اللغة الفرنسية مثلا «تصعد بالأول منهما إلى بداية القرن الخامس عشر ، وبالتالي منهما إلى بداية القرن العشرين»^(٢) .

(١) م . هـ . برامز : المدارس النقدية الحديثة ، ترجمة د . عبد الله معتصم الدباغ في الثقافة الاجنبية ١٩٨٧/ ٣ ، ص ٥٥ .

(٢) د . أحمد درويش : الأسلوب والأسلوبية ، في فصول ١ / ٨٤ . G . ٦٠ ص le petit rebert . 1976 . pp. 1622 et 1700 .

وارتبط مصطلح الأسلوب فترة طويلة بمصطلح البلاغة La Rhétorique حيث ساعد على تصنيف القواعد المعيارية التي تحملها البلاغة إلى الفكر الأدبي والعالمي منذ عهد الحضارة الإغريقية ، وكتابات أرسطو . على نحو خاص ، واكتسبت كلمة « الأسلوب » شهرة التقسيم الثلاثي الذي استقر عليه بلاغيو العصور الوسطى ، حين ذهبوا إلى وجود ثلاثة ألوان من الأساليب . هي : الأسلوب البسيط ، والأسلوب المتوسط ، والأسلوب السامي ، وهي ألوان يمثلها عندهم ثلاثة نماذج كبرى في إنتاج الشاعر الروماني « فرجيل » الذي عاش في القرن الأول قبل الميلاد^(١) .

وقد أفاض أرسطو . من قبل . في أسلوب الخطابة ؛ وكثير مما قاله ينطبق على الخطابة والشعر معا . ولهذا . كثيرا ما يستشهد على ما يقول من الشعر . على أن أنواع المجاز قد ذكرها أرسطو في كتابه « فن الشعر » ولكنه أطل فيها في الخطابة ، وهو يحيل في كل منهما على الآخر .

وللأسلوب صفات عامة يجب أن تتوافر له ، شعرا كان أم نثرا ، وهناك خصائص أخرى تفرق ما بين أسلوب الشعر وأسلوب النثر ، ثم إن من الأسلوب ماهو حقيقة وما هو مجاز ومررها إلى قدرة الكاتب ، أو الشاعر . على الابتكار في الأسلوب^(٢) .

ويذهب الدارسون إلى أن « الهزة القوية لبعض قواعد الأسلوب المعيارية جاءت على يد جورج بوفون (١٧٠٧ - ١٧٨٨) في عمله المشهور « مقال في الأسلوب » الذي انتهى فيه إلى أن « الأسلوب هو الرجل »^(٣) .

على أن مصطلح « الأسلوبية » لم يظهر إلا في بداية القرن العشرين مع ظهور الدراسات اللغوية الحديثة ؛ التي تذكر منها ما قدمته مدرسة عالم اللغة السويسري « فرديناند دي سوسور » التي ضمت مجموعة من اللغويين الفرنسيين ؛ ورفضت « اعتبار اللغة جوهرًا ماديًا خاضعا لقوانين العالم الطبيعي الثابتة ، إذ أنها خلق إنساني ،

(١) د . أحمد درويش : السابق ، ص ٦١ .

(٢) الخطابة لأرسطو ، الكتاب الثالث ، يتصل بالأسلوب فن الإلقاء . د . محمد غنيمي هلال : المدخل إلى النقد الأدبي الحديث ص ١٣٠ .

(٣) نفسه ، ص ٦١ .

وننتاج للروح البشرى ، تتميز بدورها كأداة للتواصل ، ونظام من الرموز المخصصة لنقل الفكر ؛ فهي مادة صوتية ، لكنها ذات أصل نفسى واجتماعى^(١) . وتأسيسا على ذلك . نشأ اتجاهان فى علم الأسلوب : أحدهما . يتمثل فى علم أسلوب التعبير ، ويدرس العلاقة بين الصيغ والفكر . فى عمومها ، وهو الذى ربما كان يقابل بلاغة الأقدمين . والثانى : هو . علم الأسلوب الفردى ، وهو فى واقع الأمر . نقد للأسلوب بدراسة علاقة التعبير بالفرد أو الجماعة التى تبذعه وتستخدمه ؛ ومن هنا . فهى دراسة توليدية ، وليست تقييمية ولا تعقيدية ؛ مما يجعل محورها مختلفا عن محور المدرسة الأولى ، فعلم أسلوب التعبير . لا يخرج عن نطاق اللغة ؛ ولا يتعدى وقائعها فى حد ذاتها ، أما علم الأسلوب الفردى فهو يدرس نفس هذا التعبير . فى علاقته بالأشخاص المتحدثين به ، الأول يعتد بالأبنية اللغوية ، ووظائفها داخل النظام اللغوى أى أنه وصفى بحت ، والثانى يحدد بواعثها وأسبابها ، أى أنه توليدى ، الأول يهتم بالنتائج ويتوقف على علم الدلالة ، ودراسة المعانى فى ذاتها ، والثانى يعنى بالمقاصد ويرتبط بالنقد الأدبى^(٢) .

ويذهب الدارسون إلى تحديد مولد علم الأسلوب فيما أعلنه العالم الفرنسى « جوستاف كويرتنج » عام ١٨٨٦ فى قوله : إن علم الأسلوب الفرنسى ميدان شبه مهجور تماما حتى الآن .. فوضعوا الرسائل . يقتصرون على تصنيف وقائع الأسلوب التى تلفت أنظارهم . طبقا للمناهج التقليدية ، لكن الهدف الحقيقى لهذا النوع من البحث ينبغى أن يكون أصالة هذا التعبير الأسلوبى أو ذاك ، وخصائص العمل أو المؤلف التى تكشف عن أوضاعها الأسلوبية فى الأدب ، كما تكشف بنفس الطريقة عن التأثير الذى مارسه هذه الأوضاع ، ولشد ما نرغب فى أن تشغل هذه البحوث أيضا بتأثير بعض العصور والأجناس على الأسلوب ، وبالعلاقات الداخلية لأسلوب بعض الفترات بالفن ، وبشكل أسلوب الثقافة عموماً^(٣) .

(١) د . صلاح فضل / علم الأسلوب ، ص ١٠ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٢ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٢ .

ويعد « شارل بالي » Charles Bally (١٨٦٥ - ١٩٤٧) مؤسس علم الأسلوب في المدرسة الفرنسية ؛ وخليفة « سوسور » في كرسى علم اللغة العام بجامعة « جنيف » ، وقد نشر عام ١٩٠٢ كتابه الأول « بحث في علم الأسلوب الفرنسى » ثم أتبعه بدراسات أخرى . أسس بها علم أسلوب التعبير ، فيعرفه على أنه « العلم الذى يدرس وقائع التعبير اللغوى من ناحية محتواها العاطفى أى التعبير عن واقع الحساسة الشعورية من خلال اللغة وواقع اللغة عبر هذه الحساسة » .

ومنذ سنة ١٩٤١ « عبر ماروزو Jules Marouzeau عن أزمة الدراسات الأسلوبية ؛ وهى تتذبذب بين موضوعية اللسانيات ، ونسبة الاستقراءات ، وجفاف المستخلصات ، فنادى بحق الأسلوبية فى شرعية الوجود ضمن أفنان الشجرة اللسانية العامة »^(١) .

وفى سنة ١٩٦٠ انعقدت بجامعة « آنديانا » بالولايات المتحدة الأمريكية . ندوة عالمية . شارك فيها أبرز اللسانيين ونقاء الأدباء وعلماء النفس ، وعلماء الاجتماع ، وكان محورها « الأسلوب » ألقى فيها ر . جاكوبسون Roman Jakobson محاضراته حول « اللسانيات والأنشائية » فأكد سلامة « بناء الجسر الواصل بين اللسانيات والأدب »^(٢) وما لبث ت . تودورف Tzvetan Todorov أن أصدر أعمال الشكليين الروس مترجمة إلى الفرنسية^(٣) .

وفى عام ١٩٦٩ يؤكد الألمانى « أولمان » Stephen Ullmann استقرار الأسلوبية . علما لسانيا نقديا . فيقول : « إن الأسلوبية اليوم هى من أكثر أفنان اللسانيات صرامة . على ما يعترى غائيات هذا العلم الوليد ومناهجه ومصطلحاته ، من تردد ، ولنا أن نتنبأ بما سيكون للبحوث الأسلوبية . من فضل على النقد الأدبى واللسانيات معا »^(٤) .

(١) د . عبد السلام المسدى : الأسلوبية والأسلوب ، ص ٢٢ .

J uies Marouzeau : précis de stylistique Française ، paris Massonet cie 1469

(٢) د . عبد السلام المسدى : السابق ، ص ٢٣ .

(٣) نفسه ، ص ٢٤ .

(٤) نفسه ؛ ص ٤ .

وفي البحوث الأسلوبية للنصوص الأدبية ؛ ينبغي أن « تستكمل دراسة الأسلوب في مستوياته اللغوية ، باستخدام المقولات المتصلة بالأدب ، وبالعلوم الفلسفية ، والاجتماعية ، والتاريخية ، ولعل نموذج العلاقة بين النظرية والبحث هنا . لا يخلو من اشكالات في مجال الأسلوب . تشبه ماوجده العلماء من علاقة بين علمي اللغة النظرى والتطبيقي ؛ ولا يمكن إقرار هذه العلاقة ما لم تقم على أساس البحث الأسلوبى مثله في ذلك مثل البحث اللغوى التطبيقي - يستمد بعض مقولاته من العلاقة بين اللغة والأدب من جانب ، واللغة والحياة من جانب آخر »^(١) .

فالتحليل الأسلوبى يتعامل مع ثلاثة عناصر :

- أولا : العنصر اللغوى : إذ يعالج نصوصا قامت اللغة بوضع رموزها .
- ثانيا : العنصر النفعى : الذى يؤدي إلى أن ندخل في حسابنا مقولات غير لغوية مثل : المؤلف ، والقارئ ، والموقف التاريخى ، وهدف الرسالة وغيرها .
- ثالثا : العنصر الجمالى الأدبى : ويكشف عن تأثير النص على القارئ والتفسير والتقييم الأدبى له »^(٢) .

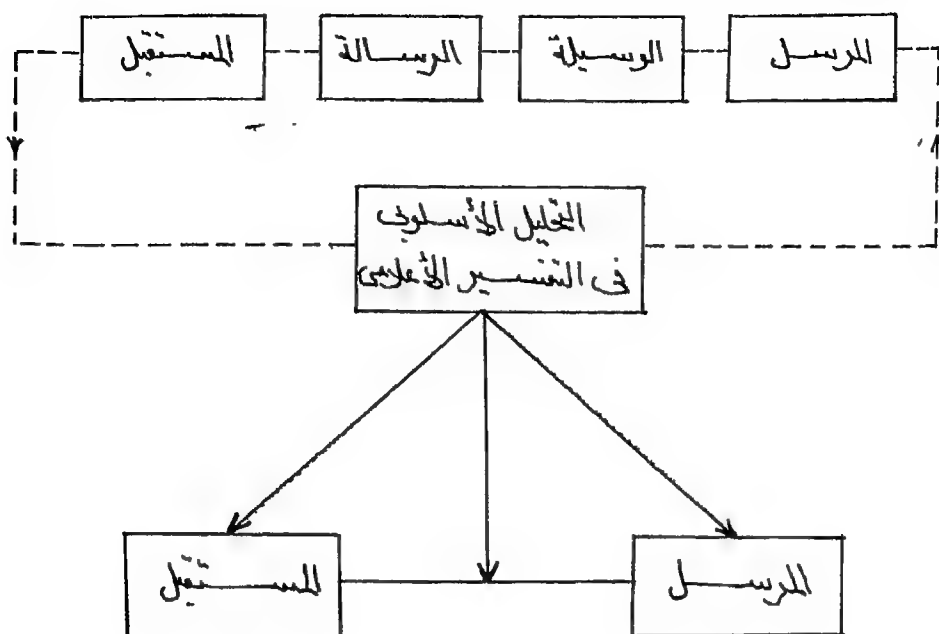
ومع أنه « ينبغي للتحليل الأسلوبى . أن يكون كاشفا في جميع الحالات عن تلك العناصر الثلاثة ، فإنه من الوجهة العملية . كثيرا ما يغفل بعضها مثل مؤلف النص ، أو الموقف التاريخى . إن لم يتضح له الدور الذى يقوم به في تكوينه ، بيد أن جميع هذه العناصر مترابطة مبدئيا ، وينبنى بعضها على البعض الآخر »^(٣) . ذلك أن الأدب يقوم على جوهر اتصالى - الأمر الذى يجعل التحليل الأسلوبى . والتفسير الإعلامى للأدب . يقوم على أساس النموذج الإتصالى : من ؟ يقول ماذا ؟ لمن ؟ وبأى وسيلة ؟ وبأى تأثير ؟ ثم ما يتصل بالموقف العام للاتصال ؛ والهدف من العملية الإتصالية ، ذلك أن التحليل الأسلوبى . يجب أن يقوم على أساس من الوجدة

(١) د . صلاح فضل / السابق ، ص ١٠٠ .

(٢) نفسه ، ص ١٠٠

(٣) نفسه ، ص ١٠٠

الإتصالية ؛ فالأديب والأسلوب ، والوسيلة ، والمستقبل والاستجابة انما هي جميعا حلقات متصلة في سلسلة واحدة^(١) .



ومن هذا النموذج تبين لنا نقطة الالتقاء بين التحليل الأسلوبي والتفسير الإعلامي للأدب ؛ وهي النقطة التي تحدد دور العناصر الأدبية الخالصة ، واستيضاح « كيفية فعاليتها » ، الأمر الذي يقتضى أن تؤخذ في الاعتبار مقولة . تلقى القارئ - المستقبل - لتأثير النص الجمالي باعتباره تدعيما للعنصر النفعي ؛ وفي هذه الحالة يتولى التحليل الموسع الشامل للعناصر الأسلوبية تزويدنا ببيانات كافية لتفسير الأدب ، ويصبح الهدف الرئيسي للتحليل الأسلوبي العميق . إدراك مدى تكامل هذه العناصر في تحقيق الحد الأقصى لفعالية النص^(٢) .

(١) د . عبد العزيز شرف : التفسير الإعلامي للأدب ص ١٢ .

(٢) د . صلاح فضل : السابق ، ص ١٠١ ؛

يذهب « جرينجر » Granger في دراسته حول فلسفة الأسلوب Essai Sur la Philosophie du style إلى أن دور اللغة في التواصل Communication يتضح من اعتماد اللغة على « رموز أو شفرات Codes تحمل معاني معلنة . متفقا عليها بين الجماعة التي تستخدمها على الإجمال ، لكن هذا الرمز قد يكون مشحونا بمعنى واحد محدد ، أو بمعان احتمالية متعددة ، ومن أمثلة الرمز المشحون بمعنى محدد . الإشارات البرقية ، وإشارات الاختزال ، حيث ينعدم الدور الفردي في التحميل أو التأويل ، ومثل هذا اللون من الإشارات والرموز ، وما يدور في هذه الدائرة من الوحدات اللغوية ، لا يدخل في باب الأسلوب ، لكن هناك رموزا أخرى تكون قابلة لحمل شحنات متعددة من خلال اتصالها بوسائل لغوية أخرى ، وهذه الرموز هي التي يمكن أن تشكل « أسلوبا » يصلح أن يكون موضوعا لدراسة أسلوبية .^(١) ذلك أنه يوجد إلى جانب دلالة الرمز Code دلالة أخرى تسمى : « دلالة ما تحت الرمز » وهي الدلالة الاصطلاحية التي يلجأ إليها جنس أدبي معين . لتوظيف الرمز اللغوي على نحو خاص به ، مثل دلالة النبر أو الوزن في الشعر ، أو دلالة الاستخدام في القوافي ، على أن التكرير الصوتي يدخل الكلام في إطار فن معين .. وهكذا ، وهناك إلى جانبها . دلالة ثالثة . يمكن أن تسمى . دلالة « مافوق الرمز » وهي لا تخضع هذه المرة للجانب الاصطلاحى للجنس الأدبي ، ولكنها ترجع إلى الخصائص الفردية للمبدع ، ومدى قدرته على التنسيق ، أو توصله إلى خلق نظام داخلى معين في عمله ، مستغلا إمكان الرمز ، وماتحت الرمز ، وكشف هذه القدرة عند المؤلف . لا يتم إلا من خلال قارئ واع ، أو ناقد متأمل . ومن هنا فإن الحقيقة الأسلوبية - كما يراها « جرينجر » ليست حقيقة معدة سلفا في اللغة . وهي كذلك ليست حقيقة بسيطة ، ولكنها محاولة شاقة وممتعة ، يشترك فيها المبدع الجيد (المرسل) والمتلقى الواعى (المستقبل) في لحظتين متعاقبتين^(٢) .

وتلتقى الأسلوبية البنائية . مع التفسير الإعلامى للأدب ؛ في التفريق بين الرمز الثنائى (رمز - رسالة) Code Message على نحو ما يدعو إلى ذلك « جاكوبون » ؛

(١) د .أحمد درويش : السابق ، ص ٦٢ .

(٢) نفسه ، ص ٦٢ .

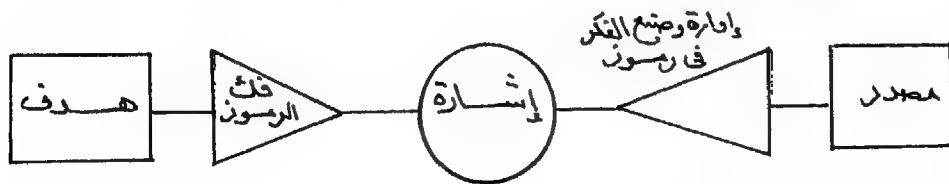
فالمتكلم يبعث برسالة « إلى السامع ، ولكي تكون فعالة ؛ فإن هذه الرسالة تقتضى سياقاً تتصل به وتندرج فيه ، كما تقتضى كذلك شفرة تشير إليها ، وتحدد رموزها . كى يستطيع السامع عند التقاطها . أن يعي مضمونها طبقاً لتلك الشفرة المشتركة بينه وبين المتكلم اشتراكاً كلياً أو جزئياً على الأقل .

وكل عنصر من عناصر الرسالة يحدد « وظيفة مختلفة للغة . وبالرغم من أننا نميز المظاهر الأساسية لها . إلا أننا لا نكاد نجد رسالة لغوية تقتصر على وظيفة واحدة منها . ويتركز الاختلاف حينئذ - لافى احتكار كل وظيفة للرسالة - وإنما فى ترتيب الأولوية فيما بينها . مما يجعل البنية اللغوية للرسالة تتوقف أساساً على الوظيفة السائدة فيها »^(١) .

ويذهب « جورج لندبرج » إلى أن مصطلح « الاتصال » يستخدم للإشارة إلى التفاعل بواسطة العلاقات والرموز ، ويذهب .. تأسيساً على ذلك .. إلى أن التفاعل الذى يؤدى إلى زيادة التوتر . يعد اتصالاً ، ولكن درجته تختلف ، إذ ينطوى على درجة مختلفة من التعريف الرمضى^(٢) .

ويميز « ادوارد ساير » بين الاتصال المحدد والاتصال الضمنى ؛ فيقول : إن الاتصال المحدد : هو اتصال بالمعنى التقليدى ، أما الاتصال الضمنى فهو التفسير البدهى للرموز اللاشعورية . نسبياً ، والاستيعاب اللاشعورى للأفكار والسلوك فى ثقافة الفرد^(٣) .

ويقدم الشكل التالى عناصر عملية الاتصال التى يركز عليها التحليل الأسلوبى :
(انظر الشكل ص ٣٤)

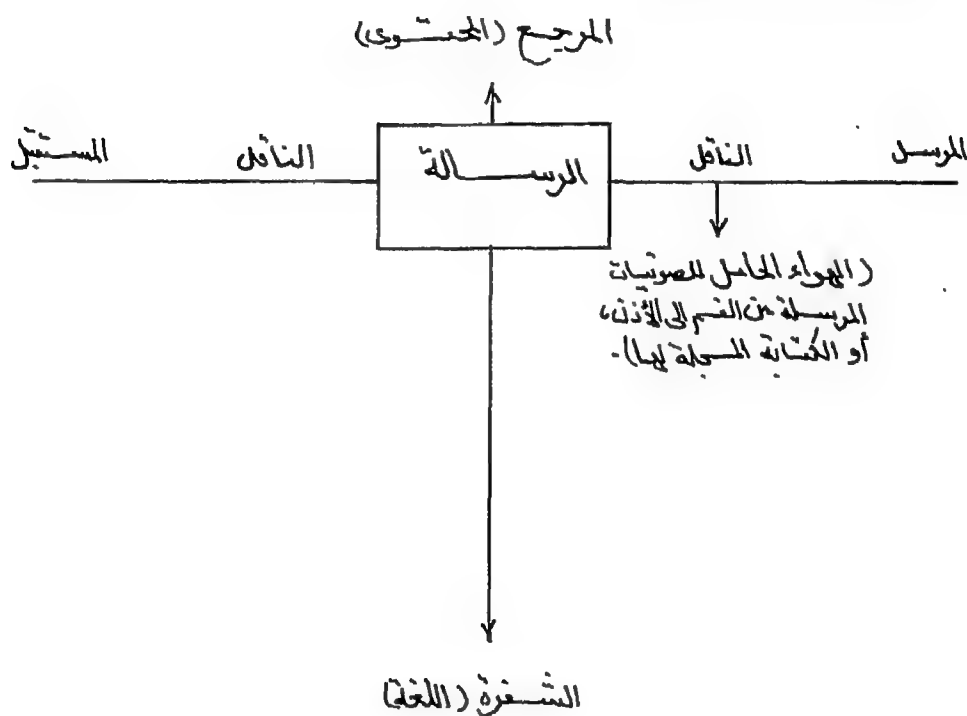


(١) د . صلاح فضل / السابق ص ١١٧ .

(٢) George Lundberg : Foundations of sociology (N .Y , 1939)

(٣) د . عبد العزيز شرف : المدخل إلى وسائل الإعلام .

وهو نموذج يقتضى الاعتداد بجميع الوظائف اللغوية فى الاتصال ؛ ولذلك يركز «جاكوبسون» فى تحليله للثنائى (رمز - رسالة) على الجزء الثانى منهما - دون أن يهمل الأول ، لأنه يعتقد أن « الرسالة » هى التجسيد الفعلى للمزج بين أطراف هذا الثنائى ، وهو مزج عبر عنه «جاكوبسون» حين سمي إحدى دراساته حول هذه القضية .. « قواعد الشعر وشعر القواعد » وهو يعنى بقواعد الشعر . دراسة الوسائل التعبيرية الشعرية فى اللغة ؛ وبشعر القواعد . دراسة الفعالية الناتجة من وضع هذه الوسائل موضع التطبيق . لقد تصور «جاكوبسون» خريطة تجسدية توضح المراحل التى تمر بها « الرسالة » بين المرسل (المتكلم أو المؤلف) والمستقبل (السامع أو القارئ) على النحو التالى^(١) :



(١) د . أحمد درويش : السابق ، ص ٦٥ .

وفي هذا النودج نلتقى بعدد من العناصر ؛ في مقدمتها (المرسل) أو (الباث) L - emetteur وهو (من مصطلحات الفيزياء . استعملها أصحاب نظرية الإعلام ؛ وتبناها رواد نظرية الاتصال La Communication ، في تعريف الظاهرة اللغوية ؛ ثم استبدلها بعضهم بكلمة (مرسل) : Destinateur ؛ والباث طرف أول في جهاز التخاطب يقابله طرف ثان أطلق عليه مجازا .. المصطلح الفيزيائي (المستقبل) Le récepteur ثم ازدوج بمصطلح آخر هو المرسل إليه Le destinataire^(١) »

وتصل المرسل بالمستقبل قناة Un canal تضمن الاتصال ، وهي ذبذبات كهربائية في التخاطب الهاتفي ، وأشعة ضوئية في التخاطب الكتابي ، وهي تموجات هوائية في الخطاب الشفوي ، وتحمل القناة (الرسالة) Le message « وقد ارتبك الفكر اللساني في تحديد هوية (الرسالة) فألح بعض اللسانيين على أنها مجموعة علامات تركبت وانتظمت حسب قوانين اللغة المستعملة وسننها ، بحيث ان الرسالة تشكّل كلامي قبل كل شيء ، وما دلالتها المعنوية .. سوى اهتداء المستقبل إلى تفكيكها حسب نفس السنن التي انتظمت بموجبها^(٢) .

أما مصطلح « الرسالة » message فيشير إلى ما يتولد عنها من وظيفة إنشائية La Fonction Poétique ، وهي « الوظيفة التي تكون فيها الرسالة غاية في حد ذاتها . لاتعبر إلا عن نفسها فتصبح هي المعنية بالدرس ، وقد جرّ البحث في العلاقة بين الرسالة والوظيفة الأدبية إلى بعض المواقف المتباينة ، فقد ذهب بعضهم إلى أن هذه الوظيفة ليست موجودة في الكلام العادي الذي تؤدي فيه اللغة وظيفتها الاجتماعية الأساسية قائلين : إن الوظيفة الأدبية تكون إذ ذاك في الدرجة الصفر ، واعتراض عليهم آخرون محتجين بأن ذلك يدفع بالبحث في شعاب تقف دون تقدمه ، إذ يصعب تحديد نقطة الانطلاق أو المعيار الذي تكون فيه اللغة في الدرجة الصفر ، وقد ذهب جاكوبون .. حسما لهذا النزاع .. إلى أن كل رسالة مهما كانت غايتها .

(١) د . عبد السلام المسدي : السابق ، ص ١٣٧ .

(٢) نفسه ، ص ١٣٨ .

تتضمن وظيفة أدبية ، بقى أن درجة هذه الوظيفة تختلف من نص إلى آخر «^(١) .

فالنموذج الاتصالي الذى يشمل المرسل والمستقبل والرسالة ؛ يتضمن فى أعطافه « بعض الثوابت التى تتحكم فى هيكل البناء اللغوى ، ويمكن أن تكون مفتاحاً له . وهذه الثوابت يسميها « جاكوبون .. الموصلات . أو مغيرات السرعة ؛ ومن بينها هذا التقسيم الثلاثى للضمائر ؛ إلى ضمائر المتكلم ، والمخاطب والغائب ، الذى يلتقى مع تقسيم ثلاثى لوظائف اللغة ، يتمثل فى الوظيفة التعبيرية (أنا المتكلم) ، والوظيفة التأثيرية ، (أنت المخاطب) والوظيفة الذهنية (هو الغائب) ؛ ويتلقى أيضاً مع تقسيم ثلاثى فى العمل الأدبى ، يتمثل فى المؤلف (أنا) والقارئ (أنت) والشخصيات (هو) ؛ ويرتبط ذلك فى النهاية بميول بعض الأجناس الأدبية إلى استعمال بعض هذه الموصلات ، أو مغيرات السرعة . دون بعضها الآخر . فالشعر الملحمى مثلاً يركز على استعمال ضمير الغائب ، ومن ثم . على الوظيفة الذهنية للغة ، فى حين أن الشعر الغنائى يركز على ضمير المتكلم ، ومن ثم على الوظيفة التعبيرية «^(٢) .

ومن المشكلات الأساسية التى يعترف بها عدد من الأسلوبيين ، مشكلات التمييز بين السمات والاتساق التى لانهاية لها فى النص ، والتى يمكن عزلها عن طريق التحليل اللغوى ، وتلك السمات هى السمات الأسلوبية ، أى أنها سمات تعين فعلاً التأثيرات الجمالية وغير الجمالية للنص على القارئ .

ويعتمد الأسلوبيون الذين يستهدفون الوصول إلى الدقة العلمية على الطرق الكمية لحساب التكرار النسبى للسمات الأسلوبية ، وكثيراً ما يستخدمون الحسابات الألكترونية لرسم جداول التكرار للسمات التى يقال عنها انها تصنف أسلوباً مميزاً ، وهناك آخرون يستعملون بدلاً من ذلك . المفاهيم اللغوية . مثل التمييز بين العلاقات اللفظية والجمالية فى اللغة ، أو يستخدمون النحو التحويلي Grammar Transformation ، والتمييز الذى يحتويه بين البناء السطحي Surface Structure والبناء العميق Deep Structure .

(١) حمادى صمود : معجم لمصطلحات النقد الحديث - قسم اول

(٢) د . أحمد درويش : السابق ، ص٦٦

وتمثل منطلقات المدرسة التحويلية التوليدية . في أن غاية اللساني . أن يحلل الحركات التي بفضلها يتوصل الإنسان إلى استخدام الرموز اللسانية ، سواء أكانت تلك الحركات نفسانية ، أو « ذهنية - ذاتية » (s) Mentaliste فلا يمكن أن يقتصر عمل اللساني عندهم على إقامة ثبت الصيغ التي تنبئ عليها لغة من اللغات ، وإنما يتعدى ذلك إلى تفسير نشأة تلك الصيغ ، وتأويل تركيبها حتى يهتدى إلى حقيقة الظاهرة اللغوية ، ويركز التوليدون عنايتهم على المستويات القصوى في الكلام ، وتجسمها التراكيب ، والجمل ، معرضين نسبيا عن المستويات الدنيا ، وهي مستوى الصرف ومستوى وظائف الاصوات La Phonologie إذ يعتبر التوليدون أن علم التركيب La Syntaxe الذى يدرس صياغة الجملة ، وانتظامها بين الجمل . هو الذى يستطيع النفاذ إلى محركات الكلام»^(١) .

ويفرق « تشومسكى » بين الكفاية .. أو القدرة اللغوية Competence وبين الأداء . أو الانجاز اللغوى Performance ويعنى بالمصطلح الأول منهما : الوسائل المتوافرة بين يدي الذات المتكلمة . من أجل التعبير عن نفسها . بينما يعنى بالمصطلح الثانى . التحقيق العينى للمقدرة اللغوية ، ولكن الملاحظ أن « تشومسكى » يدخل فى نطاق المصطلح الأول . تلك المعرفة الحدسية التى تسمح لكل فرد بأن يحكم ما إذا كانت جملة ما بعينها .. ممكنة أو غير ممكنة فى لغته الأصلية (التي يتكلم بها) ، أو ما إذا كانت عبارة ما بعينها سليمة أو غير سليمة ، ومن هنا فإن كلمة « الكفاية » أو المقدرة اللغوية . عند « تشومسكى » تعنى أكثر مما تعنيه كلمة « لغة » عند « دى سوسير » ، لأنها تفترض وجود نشاط إبداعى لدى الذات المتكلمة ، يتعارض مع الطابع السلبي غير المتعمد ، أو غير المدبر الذى كان « دى سوسير » ينسبه إلى « البغة»^(٢) .

يقول « تشومسكى » « إن ما أصبح يمثل اليوم النقطة المركزية .. التى تدور حولها كل الدراسات اللغوية الحالية ، إنما هو المظهر الإبداعى للغة ، على مستوى الاستعمال الجارى العادى .. إن كل الظواهر لتوحى بأن الذات المتكلمة تبتدع

(١) د . عبد السلام المسدى : السابق ، ص ٢١٠

(٢) د . زكريا ابراهيم : مشكلة البنية ، ص ٧٢ .

لغتها - بوجه ما من الوجوه - كلما عمدت إلى التعبير عن نفسها ، أو هي تعاود اكتشاف تلك اللغة كلما سمعت الآخرين - من حولها - يتكلمون بها ، وكأنما هي قد تمثلت - في صميم جوهرها المفكر - نظاما متسقا من القواعد ، أو مجموعة منتظمة من القوانين التكوينية . التي تحدد بدورها التفسير السيمانطيقى (الدلالى) الطائفة غير محدودة من العبارات الحقيقية ، منطوقة كانت أم مسموعة ، وبعبارة أخرى . يمكن القول .. ان كل الظواهر توحى بأن الذات المتكلمة تملك ضربا من « النحو التوليدى » الذى يسمح لها بابتكار لغتها الخاصة .

ونخلص مما تقدم إلى أن الأسلوبية يمكن أن تعرف بالبحث عن الأسس الموضوعية لإرساء علم الأسلوب^(١) . وتتحدد الأسلوبية بكونها « البعد اللسانى لظاهرة الأسلوب طالما أن جوهر الأثر الأدبى لا يمكن النفاذ إليه إلا عبر صياغاته البلاغية »^(٢) . ويذهب « جاكوبسون » إلى أن الأسلوبية .. بحث عما يتميز به الكلام الفنى .. عن بقية مستويات الخطاب أولا ؛ وعن سائر أصناف الفنون اللسانية ثانيا .

ويذهب « آريفاى » Michel Arrivé إلى أن « الأسلوبية وصف للنص الأدبى . حسب طرائق مستقاة من اللسانيات » .. كما يذهب « دولاس وريفاتار » إلى أن « الأسلوبية تعرف بأنها منهج لسانى » . وينطلق الأخير من تعريف الأسلوبية بأنها . علم يستهدف الكشف عن العناصر المميزة . التى يستطيع بها المؤلف (المرسل) مراقبة حرية الإدراك ؛ لدى القارئ (المستقبل) والتى بها يستطيع أيضا أن يفرض على المستقبل وجهة نظره فى الفهم والإدراك ، فينتهى إلى اعتبار الأسلوبية « لسانيات » تُعنى بظاهرة حمل الذهن على فهم معين ، وإدراك مخصوص^(٣) .

(١) د . عبد السلام المسدى : السابق ص ٣٤ .

(٢) Pierre Guiraud: La Stylistique, Coll.. Que Sais Je? No 646— P. U. F. 7Eue 1472

فى : د . عبد السلام المسدى : السابق ، ص ٣٥ .

(٣) د . عبد السلام المسدى السابق ، ص ٤٩ .

ويذهب « المسدى » إلى أن اللسانيات نفسها قد ولدت « البنيوية » التي احتكت بالنقد الأدبي « فأخصبا معا » شعريّة « جاكوبسون و » انشائية « « تودورف » و « أسلوبية » ريفاتار ، ولئن اعتمدت كل هذه المدارس . على رصيد لسانی من المعارف . فإنّ الأسلوبية معها قد تبوّأت منزلة المعرفة المختصة بذاتها أصولا ومناهج «^(١)» .



(١) نفسه ، ص ٥١ .

الفصل الثاني

جذور الأسلوبية في البيان العربي





أخذ النقاد . والأدباء . والكتاب . في القرن الثاني . يحاولون فهم أسرار البيان ، ووضع أصول موجزة تحدد آراءهم في جمال الأسلوب ، واشترك في النهوض بهذا العبء منذ العصر الأموي . كثيرون ، في مقدمتهم : أئمة الشعر والخطابة ، وفحول الكتاب ، والرواة ، وعلماء الأدب ، من بصريين وكوفيين وبغداديين ، ورجال النقد الذين جمع الكثير منهم مع الثقافة العربية ثقافات أخرى ، ونشأت من ذلك آراء كثيرة في البيان ، وتحديده . نجدها في مصادر كتب الأدب والنقد والبلاغة .

ثم ألفت في القرن الثالث كتب تجمع كثيرا من الآراء والدراسات الموجزة حول البيان وبحوثه ، ومن هذه الكتب :

إعجاز القرآن لأبي عبيد ق ٢٠٧هـ والفصاحة للدينوري ٢٨٠هـ وصناعة الكلام للجاحظ ونظم القرآن والتمثيل له أيضا والبلاغة وقواعد الشعر للمبرد والبلاغة للحراني وقواعد الشعر لثعلب والبلاغة والخطابة للمروزي والمطابق والمجانس لابن الحرون وتهذيب الفصاحة لأبي سعبد الأصفهاني وإعجاز القرآن في نظمه وتأليفه للواسطي المعتزلي (٣٠٦هـ) وصنعة البلاغة للباحث .

على أن أهم الكتب التي تناولت بعض مسائل البيان بالبحث ، أو التي ألفت فيها خاصة . هي البيان والتبيين للجاحظ ، وهو أهم ما ألف في هذا الطور من كتب تتصل ببلاغات العرب نثرا وشعرا ، وتعرض لتجديد البلاغة والبيان وما حولهما من آراء كانت ذائعة في عصر الجاحظ ، وفيه كثير من بحوث البيان وأصوله .

ولا يعتبر الجاحظ وإن كانت دراساته موجزة مفرقة كما يقول أبو هلال^(١) ، فهي على كل حال ذات أثر كبير في نشأة البيان ، وهي التي أوحى إلى كثير أن يعدوا الجاحظ الواضع الأول لعلم البيان . ومن الخطأ التهوين من أثر الجاحظ في البيان ، كما ذهب إليه بعض الباحثين .

وعلى نهج الجاحظ سار المبرد في كتابه الكامل ، ففيه آراء كثيرة وروايات مدونة تتصل بالبيان وموضوعاته .. وكذلك ابن المديبر في كتابه الرسالة العذراء ، ثم ابن عبد ربه في العقد الفريد ، والحصري في « زهر الآداب » وسواهم .

(١) ٧٦ و٧٧ الصناعتين .

ويبدأ التدوين في صميم البيان بتأليف ابن المعتز (٢٤٧هـ ، وقد ذكر فيه مؤلفه ألوان البديع وهي : الاستعارة - التشبيه - التجنيس - المطابقة - رد العجز على المصدر - المذهب الكلامي - الالتفات - الاعتراض الرجوع - حسن الخروج تأكيد المدح بما يشبه الذم - تجاهل العارف - حسن التضمين - التعريض والكناية - الإفراط في الصفة - لزوم ما لا يلزم ، وهذه الألوان كلها هي موضوع علمي البيان والبديع .

وبعد ذلك ظهر كتاب نقد الشعر لقدامة . وقد تكلم فيه على سر الجمال وأسباب القبح في الشعر وعناصره : اللفظ والمعنى والوزن والقافية ، وعرض بسبب ذلك لكثير مما عرض له ابن المعتز ، وزاد عليه أنواعا كثيرة . ثم ظهر نقد النثر ، وهذا الكتاب صورة قوية لفهم مؤلفه للبيان وأقسام الكلام وألوان الأساليب مما تأثر فيه بدوقه العربي وثقافته اليونانية معاً .

أما كتاب الصناعتين لأبي هلال المتوفى عام ٢٩٥هـ ، ففيه تحديد البلاغة والبيان وأوصافهما وشرح الآراء فيهما ، وذكر لألوان البديع وللسرقات الشعرية وغيرها . وقد تأثر فيه أبو هلال بالجاحظ وابن المعتز وقدامة إلى حد بعيد .

ومن الكتب التي تتعرض لبحوث البيان : الموازنة للآمدي ، والوساطة للجرجاني ، واعجاز القرآن للباقلاني ، والعمدة لابن رشيق وهو أكثرها اتصالاً بالبلاغة ، وسر الفصاحة لابن سنان ، وهو كتاب جليل في البيان والنقد والأدب ، مؤلفه هو الأمير ابن سنان الخفاجي الحلبي (٤٢٢ - ٤٦٦هـ) . وإذا كان الجاحظ هو واضع أسس البيان العربي حقاً ، فعبد القاهر هو الذي رفع قواعده .

وعلى الجملة فإن عبد القاهر قد أخذ من آراء السابقين ما يقوى به نظريته في النظم ، وزاد عليهم جميعاً وانفرد بمذهب خاص في البيان والنقد ، أثرى به البلاغة العربية إثراءً لا حدود له ، وجعلها في مرحله جديدة سارت فيها من عصره حتى اليوم ،

هذا ويذكر ابن الأثير أن الشعر والخطابة في الأدب العربي لم يتأثراً بثقافة اليونان البيانية ، وينفى أن يكون هو قد تأثر في رسائله وكتابه بما ذكره علماء اليونان في حصر المعاني ، ويقرر أنه اطلع على ما كتبه ابن سينا في الخطابة والشعر فلم يوافق ذوقه ، وأن ما ذكره لغو لا يستفيد به صاحب الكلام العربي شيئاً^(١) .

ويرى باحث محدث أنه كان للبلاغة اليونانية أثر في علم البيان العربي^(٢) ، ويرى آخر أن أرسطو المعلم الأول للمسلمين في علم البيان^(٣) وأن الكتاب والمتكلمين الذين عاشوا في القرن الثاني ، وأثروا في البيان وتطوره جلهم أعاجم^(٤) ، وأن متكلمي المعتزلة بتضلعههم في الفلسفة اليونانية . من مؤسسي البيان العربي ، وأنه حتى منتصف القرن الثالث . لم يوجد إلا بيان عربي واحد كان لا يزال في دور الطفولة ، وكان خصباً جامعاً للروح العربي والفارسي واليوناني ، ثم وجد من ذلك الوقت بيانان : عربي بحث ويوناني يجهر بالأخذ عن أرسطو^(٥) ، وحتى العربي البحث تأثر باليونان^(٦) .

وُترجم كتاب الخطابة لأرسطو في النصف الثاني من القرن الثالث . وجاء قدامة فاستفاد من كتاب الخطابة وفهم منه كل ما يمكن أن ينتفع به وطبقه على الشعر العربي . وكان يجهل كتاب الشعر^(٧) ، وقد درس قدامة الفلسفة وخاصة المنطق ... على أن تشريع الفلسفة للأدب في رأى الدكتور طه حسين يظهر أول مرة في « نقد الشعر » ثم في « نقد النثر » الذى هو مستمد من آراء أرسطو في الجدل والقياس والخطابة ، ثم يظهر عند عبد القاهر واضعاً جلياً .

وأقول : إن المشتغلين بالفلسفة اليونانية قد اشتركوا مع الجماعات الأخرى في خدمة البيان ، واستعانوا بطرق اليونانيين ومناهجهم في دراسات البلاغة ، والتأليف

(١) ٢٠ المثل السائر .

(٢) ٢٧٧ ج ١ ضحى الإسلام .

(٣) ٣١ مقدمة نقد النثر .

(٤) ٦ المرجع .

(٥) مقدمة نقد النثر .

(٦) ص ١١ المرجع .

(٧) ص ٧ المرجع .

فيها ، كما أن للفرس وما ترجم من قواعد بلاغتهم أثراً ما في البلاغة العربية^(١) .

وإذا ، ففي البيان العربى عناصر ثلاثة : عنصر عربى ، وعنصر فارسى ، وعنصر يونانى ، ولا شك أن واضعى البيان قد أفادوا من هذه العناصر الثلاثة إلى حد كبير .

ويقول باحث محدث : يستطيع الباحث أن يقرر مطمئناً أن نشأة البلاغة كانت عربية ، لكنه لا يستطيع أن ينكر أن العنصر الأجنبى قد اتصل بها . فأخذ يؤثر في تطورها ، ويبعدها عن الطريقة الأدبية العربية ويسيطر عليها ، حتى إذا اشتد سلطان هذا العنصر . صارت فلسفة خالصة على أيدي السكاكى وأصحابه^(٢) .

وبعد ، فإن العلماء يختلفون في وضع البيان العربى اختلافاً كبيراً : فيعضهم يذهب إلى أن واضعه هو الجاحظ ، الذى كان أول من أهتم به وألف في بحوثه ، وجمع آراء كثيرة فيه في كتابه « البيان والتبيين » وهو الدكتور طه حسين^(٣) ومن ذهب مذهبه .

ويرى البعض أن نشأة البلاغة قديمة ، وأنها سبقت القرآن ، وتطورت بعده^(٤) ولا شك أن صاحب هذا رأى لا يفرق بين البلاغة كفن وبينها كعلم ، فلاشك أن الأدب وخواصه الفنية موجودان من قديم ، وأما معرفة هذه الخصائص ودراستها على أنها علم وقواعد . فلم توجد إلا بعد القرن الثانى ، « فعلم البلاغة إسلامى لا عهد للجاهليين به »^(٥) ، والبلاغة باعتبارها علماً مدروساً ليست من علوم العصر الجاهلى إنما هى دراسة متأخرة في نشأتها^(٦) .

(١) يقول أبو هلال : وكان عبد الحميد الكاتب قد استخرج أمثلة الكتابة التى رسمها من اللسان الفارسى فحوّلها إلى اللسان العربى الخ .

(٢) ص ٥٢ البلاغة العربية في دور نشأتها - للدكتور سيد نوفل ط ١٩٤٨ - مكتبة النهضة . (٣) راجع ٣ ، ٣٠ و ٣١ مقدمة نقد النثر الدكتور طه - طبع لجنة التأليف ، ١٧٠ البلاغة العربية في دور نشأتها . (٤) ٤٨ / ١ النثر الفنى .

(٥) ٢٦ تاريخ البلاغة العربية للأستاذ أحمد شعراوى - مخطوط بمكتبة كلية اللغة .

(٦) ٤ ، ٥ مجلة الأدب والفن عدد نوفمبر ١٩٤٥ من مقال « خواطر في الأدب العربى » للأستاذ جب .

ويذهب باحث محدث إلى أن سيبويه إمام النحو العربى المتوفى عام ٨٨ هـ هو الذى بدأ بوضع علم البيان والبلاغة^(١). من حيث رجحت أن ابن المعتز مهد الطريق للكتابة فى البلاغة العربية .

ويذهب كثيرون إلى أن واضع البيان العربى هو عبد القاهر الجرجانى المتوفى عام ٤٧١ هـ ومن هؤلاء صاحب الطراز : على بن حمزة العلوى . قال فى مقدمة كتابه ما نصه :

وأول من أسس من هذا الفن قواعده ، وأوضح براهينه ، وأظهر فوائده ورتب أفانيته ، الشيخ العالم التحرير ، علم المحققين ، عبد القاهر الجرجانى . ويذهب آخرون إلى أنه السكاكى ، وأنه هو الذى استبد بشرف وضع علم البيان ، ويخطئ كثيرون حين ينسبون القول بذلك إلى ابن خلدون ، لأن ابن خلدون قال فى مقدمته : « وأطلق على الثلاثة عند المحدثين اسم البيان . وهو اسم للصنف الثانى ، لأن الأقدمين أول من تكلموا فيه ، ثم تلاحت مسائل الفن واحدة بعد أخرى ، وكتب فيها جعفر بن يحيى والجاحظ وقدامة وأمثالهم إملاءات غير وافية ، ثم لم تزل مسائل الفن تكمل شيئاً فشيئاً . إلى أن مخض السكاكى زبدته ، وهذب مسائله ، ورتب أبوابه ، على نحو ما ذكرناه آنفاً من الترتيب ، وألف كتابه المفتاح^(٢) ، فابن خلدون إنما يعنى أن السكاكى هو الذى هذب مسائل البيان ورتب أبوابه ، مع اعترافه بأن البحث البيانى قديم ، والتأليف فى مسائله سابق على عصر السكاكى بقرون ، فهو يعترف للسكاكى بميزة التهذيب والترتيب لمسائل البيان العربى ، ولم يعترف بأنه هو واضع البيان ، وفرق كبير بين الرايين عند النظر .

وفى رأى أن عبد الله بن المعتز الشاعر العباسى المشهور المتوفى عام ٢٩٦ هـ هو أول مؤلف فى البيان والبلاغة ، وذلك بتأليفه كتابه « البديع » ، الذى هو أول عرض لموضوعات علمى البيان والبديع ، بنظام سهل جميل مع الشواهد والأمثلة ، أما الجاحظ فلم يكن له هذا الشرف ، لأن البيان والبلاغة عنده أقوال مفرقة وكلمات مروية . وآراء عامة ، وأما عبد القاهر فقد أتى بعد كثير من العلماء الذين أفاد منهم ،

(١) محاضرة ألقاها الأستاذ أحمد مصطفى المراغى عام ١٩٤٢ .

(٢) المقدمة لابن خلدون - طبع التجارية .

وقبس من دراستهم ، وأما السكاكى فقد نهج نهج عبد القاهر مع شيء من التفلسف ، وعمق الإفادة من المنطق فى دراسة البيان ، ومع التحديد والتقسيم والتبويب والتميز بين بحوث البيان والمعاني .

أما أن ابن المعتز أول مؤلف فى علم البديع . فبدهى لاحتاج إلى جدل ، وأما أنه أول مؤلف فى علم البيان ، فلأنه بحث التشبيه والاستعارة والكناية فى كتابه ، وإن كان ذلك بوجه إجمالى بسيط ، وأما علم المعاني فليس لابن المعتز ولا لكتابه أثر فيه ... ونحن كذلك لانسند وضع علم المعاني إلى عبد القاهر ، لأن دراسته له قد سبقتها دراسات كثيرة من أهمها دراسة : مؤلف نقد النثر ، والآمدى فى الموازنة ، وقدامة فى نقد الشعر ، والباقلانى فى إعجاز القرآن ، وابن سنان فى سر الفصاحة ، وابن رشيق فى العمدة ، وإذا كانت مباحث علم المعاني عند هؤلاء غير مميزة ، فنستطيع أن نقول إنها كذلك عند عبد القاهر ، وإن كان أكثر إحاطة وتفصيلا ونقداً وتحليلاً : وهى ومثلها دراسات للبيان والبديع لم ترتب وتوضع فى الصيغة الأخيرة لها إلا بجهود السكاكى الذى فهم عبد القاهر فهما بعيداً . ولقط منه كل شاردة وأخذ عنه كل أفكاره ، بل أخذ بعض الآراء التى أبطلها عبد القاهر فجعلها رأياً له ، مع الترتيب والتبويب والتنسيق .

والباحثون يعترفون بأثر ابن المعتز وكتابه فى دراسات البلاغة والبيان : يقول المستشرق كراتشوفسكى الذى نشر البديع لأول مرة فى أوروبا ، فى مقدمته التى كتبها بالإنجليزية للكتاب ، مصوراً أثره فى تاريخ علم البديع : «وقل من الكتب فى موضعه ما يدان به تأثيراً فى الأجيال التى تلت ، بل ندر أن يجد الإنسان فى كتاب . مسألة أساسية ليس لها أصل فى كتاب ابن المعتز الذى نهج نهجاً جديداً» .

ويقول باحث محدث : قد أثر الكتاب فى تاريخ علوم البلاغة كلها فقد كان البديع لذلك العصر يشمل المعروف من ألوان البلاغة كلها ، وقد تحدث ابن المعتز فيه عن الاستعارة والتشبيه والكناية ، ولانستطيع الحكم على مقدار ابتكاره فى هذه الفنون والمحاسن لكن التشبيه والاستعارة والتعريض والكناية ، قد سبق بها ، والمذهب الكلامى منقول عن الجاحظ ، ومهما يكن من شيء فلو لم يكن له من جهد سوى التنظيم والجمع لكفاه .

وعلى أى حال فذلك لا يغض من شرف عبد القاهر ومنزلته في البيان العربى ، فإننا لانشك في أن عبد القاهر أسس مدرسة بيانية ، قوامها الذوق وعمق النقد والفهم والتحليل للأدب ، والموازنة بين شتى مآثوراته ، وهو الذى عرض لمسائل البيان بالتفصيل والإطناب والتحليل والتمثيل ، وأفاد منه جميع من أتى بعده من رجال البيان والبلاغة .

يقول كاتب^(١) : استقر بين العلماء والأدباء ، ليس ابن خلدون ، بل الإمام عبد القاهر الجرجاني هو مؤسس البلاغة العربية ، وأول من أقام عمدها ، ووضع لها الصوى والأعلام ، وأخذ بضبعها ، وأناف بها على اليفاع وسن لها رسوما وقوانين تعرج عليها ، بأسلوب لا يقوم بفصاحته لسان ، قال السيد يحيى بن حمزة الحسينى صاحب « الطراز في علوم حقائق الإعجاز » في فاتحة كتابه هذا ، وهو من هو علما وفضلا : « وأول من أسس من هذا الفن قواعده . وأوضح براهينه ، وأظهر فوائده ورتب أفانيه ، الشيخ العالم علم المحققين عبد القاهر الجرجاني . فلقد فك قيد الغرائب بالتقيد ، وهد من سور المشكلات بالتسوير المشيد ، وفتح أزاهره من أكمامها ، وفتح أزاهره بعد إستغلاقها واستبهاها ، وله من المصنفات فيه كتابان : أحدهما لقبه بدلائل الإعجاز ، والآخر لقبه بأسرار البلاغة ، ولم أقف على شيء منهما مع شغفى بحبهما ، وشدة إعجائى بهما ، إلا مانقله العلماء في تعاليقهم منهما » وغير صاحب الطراز ممن يعتقدون أن عبد القاهر هو مؤسس فن البلاغة كثير ، وإن لهم من كتابيه : أسرار البلاغة ، ودلائل الإعجاز لدليلا أى دليل ، وحجة ليس بعدها من حجة ، تصحح مآذهبوا إليه ، وتقنع كل جاحد مباهت » ، ولكننا نسألهم : هل ابتكر عبد القاهر كل هذه المباحث ابتكاراً ، وارتجلها ارتجالاً فهو ابن بجدتها وأبو عذرها ؟ وإنا لنعفيهم من الإجابة فنقول إن عبد القاهر وجد لمن سبقه من العلماء والأدباء بحوثاً وآراء في البيان العربى متفرقات في أثناء كتب النقد والأدب . فعمد إليها ولم شملها وجمع شتاتها ، وضم الإلف إلى أليفه ، والنسيب إلى نسيبه ، فكان له من كل ذلك مجموعة ضمنها كتابيه : أسرار البلاغة ، ودلائل الإعجاز ، وهو تارة يقر بالفضل لأربابه فيصرح بأسمائهم ، وتارة يغفلهم ويضرب عنهم صفحا .

(١) هو الدكتور رياض هلال من كلمة نشرها بمجلة الأزهر .

فيظن بعض الناس أن المبحث من بنات أفكاره وكد ذهنه وعرق جبينه ، ولو علموا لرجعوا كل شيء إلى أربابه ، وأقروا الأمر في نصابه . ولسنا ننكر أن عبد القاهر قد ابتكر في البيان العربي وارتحل في أبحاثه ، كما لا نجهل أنه فصل بعض ما أجمله العلماء قبله ، وشرح بعض مآلوله ، ونوع الأمثلة . وأقى بأمداد من الشعر والنثر متوافرة ، ولكننا ننكر أن يكون هو مؤسس فن البلاغة برغم ما يقوله صاحب الطراز ، وعبد القاهر نفسه يقر بأنه أفاد من تقدمه ممن كتبوا في البلاغة والفصاحة ، وينعى على الناس عدم تدبرهم لكلام العلماء وإمعانهم النظر فيه ، حتى أدخلوا الضيم على علم الفصاحة والبلاغة ، فيقول في دلائل الإعجاز^(١) أعلم أنك لا ترى في الدنيا علما قد جرى الأمر فيه بدنياً وأخيراً على ما جرى عليه في علم الفصاحة والبلاغة أما البدء فهو أنك لا ترى نوعاً من أنواع العلوم إلا إذا تأملت كلام الأولين الذين علموا الناس ، وجدت العبارة فيه أكثر من الإشارة والتصريح أغلب من التلويح ، والأمر في علم الفصاحة على الضد من ذلك ، فإنك إذا قرأت ما قاله العلماء فيه وجدت جله أو كله رمزا أو وحيا ، وكناية وتعريضاً ، وإيماء إلى الغرض من وجه لا يظن له إلا من غلغل الفكر وأدق النظر ومن يرجع من طبعه إلى المعية يقوى معها على الغامض ويصل بها إلى الخفى ، حتى كان بسلا حراماً أن تتجلى معانيهم سافرة الأوجه لانقلاب لها ، وبادية الصفحة لاحجاب دونها . وأما الأخير فهو أنا لم نر العقلاء قد رضوا من أنفسهم في شيء من العلوم أن يحفظوا كلاماً للأولين « يتدارسونه ويكلم به بعضهم بعضاً من غير أن يعرفوا له معنى ويقفوا منه على غرض صحيح ، ويكون عندهم إن يسألوا عنه بياناً له وتفسيراً ، إلا علم الفصاحة ، فإنك ترى طبقات من الناس يتداولون فيما بينهم ألفاظاً للقدماء ، وعبارات من غير أن يعرفوا لها معنى أصلاً ، أو يستطيعوا أن يسألوا عنها أو يذكرها لها تفسيراً يصح ، وسرى أن عبد القاهر قد أسرف في دعواه أن العلماء لم يتجاوزوا التلميح إلى التصريح والإشارة إلى العبارة في مسائل البلاغة والفصاحة ، وأنه في كثير من المباحث لم يزد على مآلولها إلا في الأمثلة والشواهد .

وقد عرض الأستاذ أحمد المراغى في كتابه « بحوث وآراء في البلاغة » لعبد القاهر : فذكر رأى عبد القاهر في الفصاحة والبلاغة ، وهل يرجعان إلى اللفظ أو

(١) ص ٣٤٩ .

إلى المعنى^(١) ثم ذكر عبد القاهر في بناء البلاغة العربية وقال : « وفي الحق أن كتابيه يعدان أول المؤلفات العلمية في هذه الفنون ، بما اشتملا عليه من التحقيق العلمى للمسائل التى تناولها فى عرض كلامه ، وبما سلك فيها من نهج أدبى مقرون بتدقيق منطقى بديع ، مع بقاء الأسلوب الأدبى ظاهراً لم تشبه هجته ، فلا غرو أن قيل .. إن أول من وضع هذه الفنون عبد القاهر الجرجاني ، كما أن من الحق أن نقول أيضاً : إن عبد القاهر بوضعه هذين الكتائين أوجد علوم البلاغة كاملة فكل من جاء بعده قبس من نور علمه ، ومالم يتعرض له من مسائلها ، وزادوه فيها بعده فهو قشور ، تركها لا يضير الأديب^(٢) .

وقال فى موضع آخر : وفى الحق أن هذا البيان كان وليد احتكاك العرب والعجم الذين حذقوا لغاتهم واللغة العربية . ونتاجاً لازدواج هاتيك اللغات بعضها ببعض . ولم يكن بالعربى البحث الذى أنتجته القرائح العربية الخالصة ، فتاريخ . الأدب حافل بأسماء الأدباء الكتاب الموالى الذين كان يشار إليهم بالبنان فى رقى الأدب^(٣) .

ويقول عن كتابى عبد القاهر : أسلوبه فيهما يجمع بين الطريقتين : ففيه قوة الجدل المنطقي ، وله المعرفة التامة باصطلاح الفلاسفة والمتكلمين ، إلى الروح الأدبى والقدرة على النقد وصناعة الكلام ، إلا أن أسلوبه فى دلائل الإعجاز أميل إلى طريقة المتكلمين ، بينما تراه فى « أسرار البلاغة » عربى الأسلوب ، وفى تعبيره رونق وطلاوة مع سهولة وجزالة وعذوبة وسلاسة إلى قوة الشكيمة فى الحجاج ، وتمام الآلة فى الجدل ، مع ميل إلى الأسلوب والبسط فيما يريد إثباته من القضايا ، وإحالة للمخاطب على الذوق وإدراك الجمال الفنى بنفسه ، ويصل إلى ما قد وصل إلى إدراكه بعد طول البحث والاختيار^(٤) .

(١) ص ١٠ - ٢٨ المرجع ط ١٩٤٠ .

(٢) ص ٥٨ المرجع ، ويقول فى موضع آخر عن عبد القاهر : « احيا موات هذا العلم ، وأنشأ فيه نهضة جديدة ، واستعار شيئاً من التحقيق العلمى الفلسفى والبحث الفلسفى لإثبات مسائل هذا العلم ، بإسراف حيناً واقتصاد حيناً آخر ، مع بقاء الصيغة الأدبية سليمة لا يعتورها وهن ولا ضعف (ص ٥٠ المرجع) .

(٣) ٥٥

(٤) ص ١٢٩ و ١٣٠ المرجع .

ويقول الدكتور طه حسين في مقدمة كتابه نقد النثر ما نصه : « لم تلق
« خطابة » ابن سينا ولا « شعره » - وهما شرح وتحليل لفلسفة أرسطو وآرائه في
الخطابة والشعر ، وقد جعلهما ابن سينا من فنون كتابه « الشفاء » - قبولاً لدى
الفلاسفة الذين جاءوا من بعده » .

« على أن مجهود ابن سينا لم يكن ليذهب عبثاً ، لقد عرب كتاب « الخطابة »
لأرسطو - إذا صح هذا التعبير - وجعله في متناول الفكر العربى ، وبذلك هياً
أسباب التوفيق بين البيانيين : العربى ، واليونانى - الذين عاشا متجاورين دون أن
يتلاقيا ويتألفا » .

« وقد تحقق هذا التوفيق في القرن الخامس على يدى عبد القاهر الجرجاني^(١) » .
« صنف عبد القاهر كتابين يعتبران بحق أنفس ما كتب فى البيان العربى هما :
أسرار البلاغة ، ودلائل الإعجاز » .

« فعندما تقرأ أولهما تكاد تجزم بأن المؤلف قرأ الفصل الذى عقده ابن سينا
للعبارة ، وأنه فكر فيه كثيراً ، وحاول أن يدرسه دراسة نقد وتمحيص ، والواقع
أنه درس « الحقيقة » و« المجاز » فبين له أن تصور القدماء للمجاز مضطرب غير
مستقيم ، فابتدأ يوضح مبهمه ، ويجلو غامضه ، وقسم المجاز إلى نوعين : لغوى
وعقلى ، ثم قسم اللغوى إلى قسمين : أحدهما يقوم على التشبيه وأما الآخر فعبارة
عن كل لفظ استعمل مكان لفظ آخر لصلة بينهما ..

وبعد فنحن نعرف مجاز أرسطو الذى يميز إطلاق أسم الجنس على النوع ، واسم
النوع على الجنس ، واسم النوع على نوع آخر ، فمجاز أرسطو هذا هو ما يسميه
عبد القاهر « مجازاً مرسلًا » ، وأما المجاز الذى يقوم على التشبيه والذى يسميه أرسطو
« صورة » فيسميه عبد القاهر « استعارة » وهو لفظ كان القدماء يطلقونه على المجاز
بكافة أنواعه ولكى يقرر عبد القاهر ما هية هذا فإنه يتعمق فى دراسة المجاز والتشبيه
تعمقاً لم يسبق إليه ، ولكن من غير أن يخرج بحال عن الحدود التى رسمها أرسطو :
أما المجاز العقلى فهو من ابتكار عبد القاهر ويصح أن نسميه المجاز الكلامى لأنك

(١) ص ٢٨ مقدمة نقد النثر للدكتور طه حسين طبعه سنة ١٩٣٩ بالقاهرة .

إذا قلت مع عبد القاهر « أنبت الربيع البقل » فهذا مجاز ، لأن الربيع لا ينبت البقل ، ولكن الذى ينبته هو الله تعالى ، وينفق عبد القاهر جهداً غير قليل فى الدفاع عن مجازة هذا وفى تمييزه عن المجاز المعروف ولكن لاشك أن الأساس الذى يبنى عليه هذا التمييز محل النظر^(١) .

أما كتاب « دلائل الإعجاز » فيحاول فيه عبد القاهر أن يثبت إعجاز القرآن ، وهو أمر جعله علماء الكلام الغرض من البيان من عهد بعيد ، ولكى يصل عبد القاهر إلى هذه الغاية أيد بحته بنقض نظريتين قد يمتين :

إحدهما : تجعل جمال الكلام فى اللفظ .

والأخرى : تجعله فى المعنى :

ثم ينتهى به البحث إلى أن الجمال ليس فى اللفظ ولا فى المعنى ، وإنما هو فى نظم الكلام ، أى فى الأسلوب ، ثم يحاول بعد ذلك أن يبين فيم يكون جمال الأسلوب وروعته ، فيدرس الجملة بالتفصيل : منفردة ومتصلة ، ويضطره البحث إلى الكلام على أهمية حروف العطف ، وقيمة الإيجاز والاطناب ، وضرورة مطابقة الكلام لمقتضى الحال . وبذلك يضع أساس علم المعانى المشهور .

ولا يسع من يقرأ «دلائل الإعجاز» إلا أن يعترف بفضل عبد القاهر وبما أنفق من جهد صادق خصب فى التأليف بين قواعد النحو العربى وبين آراء أرسطو العامة فى الجملة والأسلوب والفصول ، وقد وفق عبد القاهر فيما حاول توفيقاً يدعو إلى الإعجاب ، وإذا كان الجاحظ هو واضح أسس البيان العربى حقاً ، فعبد القاهر هو الذى رفع قواعده وأحكم بناءه^(٢) .

(١) ص ٢٩ المرجع السابق .

(٢) ص ٣٠ من المرجع نفسه .



الفصل الثالث

الأسلوبية ومصطلح الصياغة





الصياغة والنظم بمعنى واحد ، فإذا قلنا « الصياغة » فإنما نعنى النظم ، وإذا قلنا النظم فإنما نعنى الصياغة ..

ونحن لا نعدو الحق إذا قلنا : إن نظرية عبد القاهر فى النظم كانت نظرية فى الصياغة تحدث عنها ، عندما قال : « ومعلوم ان سبيل الكلام سبيل التصوير والصياغة^(١) » .

وقد اثار عبد القاهر كثيرا من المسائل الأساسية فى الصياغة :

- كفصاحة الكلمة وخلوها من الغرابة وتنافر الحروف .

- ومسألة مطابقة الكلام للسامعين ، ومتى يحتاج إلى تأكيد ، وكيف تقدم اجزائه بعضها على بعض ، ومتى تتأخر ، ومتى تذكر ، ومتى تحذف ، ومتى تعرف ، ومتى تنكر ، ومتى تظهر ، ومتى تضر .

كل هذه الجوانب يجب أن يعرفها الشاعر ، بل ينبغى أن يحذفها ، إذ يستقر فيها كثير من أسرار الجمال فى الصياغة الأدبية ، ولا بد للشاعر أن يتقنها جميعا ، حتى يؤدي ما يريد أداء مستقيما ، إذا كفلت له كل العناصر الأساسية فى الصياغة الفنية^(٢) .

وقد كتب عبد القاهر كتابه « أسرار البلاغة » لتحليل الصورة الأدبية ، وبيان منزلتها فى الشعر خاصة ، ودورها فى التأثير النفسى . ففكرة التصوير قد جعلها عبد القاهر أصلا فى أسرار البلاغة .

وعلى هدى ما سبق نقول : إن الصياغة والأسلوب طريقة الأداء ، أو طريقة التعبير التى يسلكها الأديب لتصوير ما فى نفسه . أو لنقله إلى سواه ، بهذه العبارات اللغوية .

(١) ٣١٩ النقد التحليلى عند عبد القاهر - د . الصاوى - ١٩٧٩ - الهيئة المصرية العامة للكتاب - فرع الاسكندرية .

(٢) ٣١٨ ، ٣١٩ النقد التحليلى عند عبد القاهر - د . الصاوى - ١٩٧٩ -

أى هو طريقة تأليف الألفاظ للتعبير بها عن المعانى قصد الإيضاح والتأثير^(١) ..
إنه طريقة التفكير والتصوير .. والتعبير^(٢) .

الأسلوب أذن هو طريقة الكاتب أو الشاعر الخاصة فى اختيار الألفاظ وتأليف الكلام^(٣) ، أو هو طريقة خلق الفكرة وتوليدها وإبرازها فى الصورة اللفظية المناسبة^(٤) ..

وصفات الأسلوب الجامعة : هى الأصالة والتلاؤم والإجازة^(٥) أى الإيجاز ..
والأسلوب الفنى يتكون من الصوت والفكرة^(٦) ..

وكان فلوير إمام الصياغة فى فرنسا ، وقال لبعض أصحابه : تقول لأننى شديد العناية بصورة الأسلوب ، والصورة والفكرة كالجسد والروح هما فى رأى شىء واحد^(٧) .

ويقول بعض النقاد المعاصرين إن الصياغة أو الأسلوب ، أو النظم طبعا ، بمثابة الجسم للتجربة العشرية .

ومن عناصر الصياغة : الخيال ، والموسيقى ، والوحدة الشعرية ، والتناسب ، وتخير الألفاظ تخيرا فنيا^(٨) .

والخيال تبدو صوره فى التشبيه ، والمجاز والاستعارة والكناية ، وما إليها^(٩) .

ومن عناصر الصياغة عند هؤلاء النقاد المعاصرين الألفاظ وتراكيبها .

(١) الأسلوب للشايب - الطبعة السادسة - ١٩٦٦ - النهضة المصرية .

(٢) ٤٥ المرجع نفسه .

(٣) ٥٦ دفاع عن البلاغة لأحمد حسن الزيات - مطبعة الرسالة ١٩٤٥ .

(٤) ٦٢ المرجع نفسه .

(٥) ٨١ المرجع نفسه .

(٦) ٧٨ المرجع نفسه .

(٧) ٦٦ و ٦٥ دفاع عن البلاغة - الزيات - مطبعة الرسالة - عام ١٩٤٥ .

(٨) ٤٦ و ٤٥ الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث للسحرقى - طبعة ١٩٤٨ .

(٩) ٤٦ المرجع السابق .

ويطالب أبو شادى باحترام أصول اللغة وتراثها ، واستيعاب روائعها ، واستلهاهم
أجمل ما فى التراث .

كما يطالب باطلاق نفس الشاعر على سجيته ..

والتعبير الجيد عن التجربة الصادقة للشاعر هو الشعر الأصيل . والنظم كما
شرحهما عبد القاهر هما شيء واحد ، وهو تعليق الكلم بعضها ببعض ، وجعل
بعضها بسبب من بعض . وهو ما درسه العرب فى كتبهم النحوية قبل أن يتخذ
عبد القاهر أساسا لنظريته فى البلاغة والنقد . والموضوعات التى دخلت فى نظرية
النظم ليست جديدة ، وإنما الجدة فيها استغلالها فى تصوير محاسن الكلام وإظهار
ما فيه من روعة وتأثير . ولو مضينا نستعرض فكرة النظم لرأينا بذورها فيما كتبه
النحاة والبلاغيون ومؤلفو كتب إعجاز القرآن . بل لوجدنا غير العرب يعنون بدراسة
ما تشتمل عليه من موضوعات اتخذها عبد القاهر سبيلا للوصول إلى فكرته التى
أقام عليها مسألة الإعجاز .

وفى دراسات أرسطو البلاغية والنقدية . حديث عن أجزاء القول . فقد عقد
فى كتابه : « فن الشعر » فصلا تكلم فيه على أقسام الكلمة ، والفروق بين أقسامها ،
والمقاطع والحروف والأصوات وغيرها من المسائل التى رآها ضرورية فى البلاغة .^(١)

وتحدث فى المقالة الثالثة من كتاب « الخطابة »^(٢) عن مراعاة الروابط بين
الجملة ، والأسلوب المفصل ، والأسلوب المقطع ، وحذف أدوات الوصل والتكرار ،
ومعنى ذلك أن أرسطو اتخذ من هذه الموضوعات أساسا فى دراسته للأساليب والتمييز
بينها ، ولاسيما أسلوب الخطابة الذى يحتاج إلى عناية كبيرة فى انتقاء الألفاظ ،
والربط بينها والوقوف عند بعضها .

وذكر الباحثون أن الهنود عنوا بنظرية النظم . وقد وصلت هذه العناية عندهم
إلى مستوى من الدقة والاستقصاء لا يقل عما وصل إليه نقاد الأدب فى البيئات
الأخرى . وليس أمامنا من هذه الدراسات ما يوضح فكرة النظم عند الهنود أو

(١) فن الشعر ص ٥٥ وما بعدها .

(٢) الخطابة ص ١٨٥ وما بعدها .

بلاغتهم . سوى ما ذكره الجاحظ في « البيان والتبيين »^(١) عن الصحيفة الهندية وما جاء فيها من أصول تتصل بالخطيب وصفاته وبالأسلوب ، وما ذكر البيروني في تاريخ الهند ووصفه للمحاولات البلاغية التي كانت تتصل بقضية الإعجاز في كتابهم الديني^(٢) .

وكانت للنحاة العرب يد طويلة في دراسة الكلام وتحليله ، والوقوف عند الجملة وما يحدث فيها من تقديم وتأخير . أو حذف وذكر ، أو فصل ووصل . ولعل سيويو من أقدم الذين وقفوا عند هذه الجوانب ، ودرسها بعمق في فصول كتابه الشهير وأبوابه . وأخذ عنه الآخرون من نحاة وبلاغيين ونقاد أصوله ، وبنوا عليها نظرياتهم . ولكن سيويو والنحاة لم يسموا هذه البحوث نظما ، وإنما هي قواعد تسير عليها العرب في كلامها أو إنشائها ، ولا نستطيع ان ننسب إليهم بعد ذلك نظرية النظم التي حاول بعض المعاصرين أن يربطها بهؤلاء النحاة ربطا وثيقا ليجرد البلاغيين وعلى رأسهم عبد القاهر من الأصالة والتجديد ، مع إيماننا بأن الموضوعات التي بنيت عليها هذه الفكرة كانت نحوية محضة ، ولكن البلاغيين استفادوا منها وصوروها خير تصوير .

وإذا أردنا أن نتلمس فكرة النظم . فينبغي أن نتلمسها في كتب أخرى بعد أن رأينا ارتباطها بكتب النحو . وأقدم اشارة عثرنا عليها في الكتب العربية عبارة ابن المقفع التي أشار فيها إلى صياغة الكلام . قال : « فإذا خرج الناس من أن يكون لهم عمل ، وأن يقولوا قولا بديعا . فليعلم الواصفون المخبرون أن أحدهم وإن أحسن وأبلغ ليس زائدا على أن يكون كصاحب فصوص وجد ياقوتا وزبرجدا ومرجانا . فنظمه قلائد وسموطا وأكاليل ، ووضع كل فص موضعه وجمع إلى كل لون شبهه مما يزيده بذلك حسنا فسمى بذلك صائغا رقيقا ، وكصاغة الذهب والفضة صنعوا فيهما ما يعجب الناس من الحلى والآنية . وكالنهحل وجدت ثمرات أخرجه الله طيبة وسلكت سبلا جعلها الله ذللا . فصار ذلك شفاء وطعاما وشرابا منسوباً إليها مذكورا

(١) ج ١ ص ٨٨ ، ١٢٠ - ٩٣ .

(٢) المدخل إلى دراسة البلاغة العربية ص ٧٧ - ٧٨ .

به أمرها وصنعتها . فمن جرى على لسانه كلام يستحسنه أو يستحسن منه فلا يعجب
به أعجاب المخترع المبتدع فإنه إنما اجتبه كما وصفنا -^(١) .

وأخذ البلاغيون هذا الكلام وأداروه في كتاباتهم من غير أن يشيروا إلى ابن
المقفع ، فقال الجاحظ : « فإنما الشعر صناعة وضرب من النسيج وجنس من
التصوير »^(٢) ، وكرر عبد القاهر هذا المعنى كثيرا .

وتحدث الجاحظ عن النظم في كتبه وسمى أحد كتبه « نظم القرآن » . قال :
« كما عيت كتابي في الاحتجاج لنظم القرآن وغريب تأليفه وبديع تركيبه »^(٣) .
وقال : « وفي كتابنا المنزل الذي يدل على إنه صدق ، نظم البديع الذي لا يقدر
على مثله العباد مع ماسوى ذلك من الدلائل التي جاء بها من جاء به »^(٤) ، والجاحظ
في هذين النصين وغيرهما يؤمن بأن القرآن معجز بنظمه وما فيه من بلاغة تأسر
القلوب ، وقد بنى عليها تصوره للأدب عامة ، ولو أن كتابه « نظم القرآن » بين
أيدينا لاستطعنا أن نكشف عن رأيه الواضح في هذه المسألة لأن النصوص التي نقلت
عنه لاتعطي فكرة دقيقة .

ونجد الفكرة تتطور عند أبي سعيد السيرافي ، وتأخذ صورة أكثر جلاء حينما
تحدث عن معاني النحو وقال : « معاني النحو منقسمة بين حركات اللفظ وسكناته ،
وبين وضع الحروف في مواضعها المقتضية لها وبين تأليف الكلام بالتقديم والتأخير
وتوخي الصواب في ذلك وتجنب الخطأ في ذلك وإن زاع شيء عن النعت فإنه لا
يخلو أن يكون سائغا بالاستعمال النادر والتأويل البعيد . أو مردودا لخروجه عن عادة
القوم الجارية على فطرتهم »^(٥) .

وكان لمسألة إعجاز القرآن أثر في بلورة فكرة النظم ، وقد ذهب قوم من
المتكلمين إلى أن وجه الإعجاز هو ما اشتمل عليه القرآن من النظم الغريب المخالف

(١) الادب الصغير - آثار ابن المقفع ص ٣١٩ ، ورسائل البلغاء ص ٥ - ٦ .

(٢) الحيوان ج ٣ ص ١٣٣ .

(٣) الحيوان ج ١ ص ٩ .

(٤) الحيوان ج ٤ ص ٩٠ .

(٥) الإمتاع والمؤانسة ج ١ ص ١٠٧ ، ومعجم الأدباء ج ٣ ص ١٠٥ .

لنظم العرب ونثرهم في مطالعه ومقاطعته وفواصله . وذهبت جماعة منهم إلى أن وجه الإعجاز في مجموع الأمرين : النظم ، وكونه في أعلى درجات البلاغة . ولأبي عبد الله محمد بن يزيد الواسطي (- ٣٠٦هـ) كتاب في إعجاز القرآن سماه « إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه » ولا نعرف عنه شيئا مع أن عبد القاهر شرحه مرتين إلا أن الأصل وشرحيه لم يصلا وإن كان العنوان يظهر أنه عالج مسألة النظم وأقام عليها إعجاز القرآن .

وفي كتب الإعجاز التي وصلت إلينا حديث عن النظم ، ولكنه لا يجلي الصورة ولا يوضح الهدف ، وإنما هي ومضات في الطريق . سار عليها البلاغيون . فأبو سليمان حمد بن محمد بن ابراهيم الخطابي (- ٣٨٨هـ) يرى أن القرآن إنما صار معجزا لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظم التأليف مضمنا أصح المعاني . ويقول إن « عود هذه البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص والأشكل به . الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه إما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام . وإما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة^(١) . ويرى أبو الحسن علي بن عيسى الرمانى (- ٣٨٦هـ) أن أعلى مرتبة في حسن البيان ما جمع أسباب الحسن في العبارة من تعديل النظم . حتى يحسن في السمع ويسهل على اللسان وتتقبله النفس تقبل البرد^(٢) . ويرى أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني (- ٤٠٣هـ) أن كتاب الله معجز بالنظم . لأن نظمه خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلام العرب ، قال : « فأما شأن نظم القرآن فليس له مثال يحتذى عليه ولا إمام يقتدى به ولا يصح وقوع مثله اتفاقا كما يتفق للشاعر البيت النادر والكلمة الشاردة والمعنى الفذ الغريب والشيء القليل العجيب^(٣) . وقال : « ليس الإعجاز في نفس الحروف . وإنما هو في نظمها وإحكام وصفها وكونها على وزن ما أتى به النبي - ﷺ - وليس نظمها أكثر من وجودها متقدمة ومتأخرة ومرتبة في الوجود وليس لها نظم

(١) بيان إعجاز القرآن - ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ٢٦ .

(٢) النكت في إعجاز القرآن - ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ٩٨ .

(٣) إعجاز القرآن ص ١٦٩ .

سواها»^(١) وقال عن القرآن : « وهو معجزة الرسول -عليه السلام - دال على نبوته من ثلاثة أوجه : أحدها ما فيه من عجب النظم وبيد الوصف وانه لا قدرة لأحد من الخلق على تأليف مثله ولا تأليف سورة منه أو آية بقدر سورة^(٢) .

وكان كلام القاضي عبد الجبار (-٤١٥هـ) أكثر وضوحا حينما رأى أن الفصاحة والبلاغة تقومان على ضم الكلمات وتقارنها قال : « إعلم أن الفصاحة لا تظهر في افراد الكلام بالضم على طريقة مخصوصة . ولا بد مع الضم من أن يكون لكل كلمة صفة . وقد يجوز في هذه الصفة أن تكون بالمواضعة التي تتناول الضم ، وقد تكون بالإعراب الذى له مدخل فيه ، وقد تكون بالموقع . وليس لهذه الأقسام الثلاثة رابع . لأنه إما أن تعتبر فيه الكلمة أو حركاتها أو موقعها ، ولا بد من هذا الاعتبار في كل كلمة . ثم لا بد من اعتبار مثله في الكلمات إذا انضم بعضها إلى بعض ، ولك كما يتضح من الجزء السادس عشر من كتابه « المغنى »^(٣) .

هذا ويجعل البحراني في كتابه « أصول البلاغة^(٤) » من أقسام النظم : المطابقة والمقابلة والمزاوجة فالالتفات والإعراض والاقتراس والتلميح ، وارسال المثليين ، واللف والنشر والإيهام ، ومراعاة النظير ، والمدح الموجه ، وتجاهل العارف ، وحسن التعليل ، والاغراق في الصفة ، والسؤال والجواب ، والحذف ، والتعجب .

الصياغة أو النظم عند عبد القاهر :

والصياغة^(٥) عند عبد القاهر تتفاوت على درجات ، وهى أمانة على البراعة والحذق ، ولها لطائف لا تحصر ..

(١) كتاب التمهيد ص ١٥١ .

(٢) نكت الانتصار لنقل القرآن ص ٥٩ .

(٣) ١٦ ، ١٩٩ المغنى ، وراجع ذلك بتفصيل في ص ٨٧ وما بعدها من كتاب ابو محمد ابو موسى « البلاغة القرآنية في تفسير الزخشرى » طبعة دار الفكر .

(٤) تحقيق د . عبد القادر حسين - ونشر بدارالشروق بالقاهرة .

(٥) ص ٣٧ نظريات العلاقات بين عبد القاهر والنقد العربى الحديث - د . أحمد نائل بين - دار الطباعة

المحمدية (بدون تاريخ) .

ويقول عبد القاهر :

« وجملة الأمر إنا ما رأينا في الدنيا عاقلا اطرح النظم والمحاسن التي هو السبب فيها من الاستعارة والمجاز والكناية والتمثيل وضروب المجاز والإيجاز ، وصدد بوجهه عن جميعها ، وجعل الفضل كله ، والمزية أجمعها ، في سلامة الحروف مما يثقل .. كيف وهو يؤدي إلى السخف والخرج من العقل كما بينا^(١) .

فالنظم عند عبد القاهر طبقات وأجناس ، فذلك الذي مضى . وهو توخى معاني النحو فيما بين الكلمة على حسب الأغراض والدواعي ، جنس منه . وهناك جنس آخر ، وطبقة أعلى . فيه إلى جانب معاني النحو التي مرت ، خواص ومزايا أخرى ، ليست من النحو ولا مبنية على وجوهه وفروقه ، تلك هي أن يفتن المتكلم في صورة النظم والتركيب فيؤلفها من اجزاء متماثلة الصنع ، متشاكلة الصور بحيث تتجلى في شكل هندسي منتظم ، ووضع متناسب ملتئم ، يستثير الإعجاب ويجتذب القلوب .

وقد عقد الشيخ لهذا الجنس من النظم فصلا عنوانه « فصل في النظم يتجدد في الوضع ويدق فيه الصنع^(٢) » . ذكر فيه المزاوجة والتمثيل ، والتشبيه مفرقا ومركبا ، والتقسيم مع الجمع ، والطباق والمقابلة . فهذه الأنواع إذا انتظمت فيها الصورة ، واستطاع الناظم البارع ان يراعى في اجزائها وضعا واحدا ، كانت كما قال الشيخ « النمط العالى ، والباب الأعظم ، والذي لا ترى سلطان المزية يعظم في شيء كعظمه فيه » .

والشيخ في هذه الأنواع التي ذكرها ليس مستغربا ، وإنما هو - كعادته - في معرض التمثيل فحسب ، لأنه يقول « وليس لما شأنه أن يجيء على هذا الوصف حد يحصره ولا قانون يحيط به ، فإنه يجيء على وجوه شتى ، وأنحاء مختلفة » .

فبيت البحتري في المزاوجة :

إذا ما نهى الناهي فلجَّ بى الهوى اصاغت إلى الواشى فلجَّ بها الهجر

(١) ط ٤٥٧ الأثرل والإعجاز .. تحقيق خفاجى . (١) ص ٧٣ - ٧٦ .

(٢) من ص ٧٣ - ٧٦ .

وبيته الآخر :

إذا احتربت يوما فغاضيت دماؤها تذكرت القرى فغاضت دموعها
يبدیان من جمال الصورة واتحاد الوضع والترتيب ما يملأ النفس إعجابا وروعة .
ونحن نستطيع أن نجعل بيت أبى تمام :
أحاولت ارشادى ؟ فعقلى مرشدى أو اخترت تأديبى ؟ فدهرى مؤدى

وبيت البحرى :

شوقى إليك تفيش منه الأدمع وجوى إليك تضيق عنه الأضلع
وأنشد عبد القاهر أبيات القضاى :
فبينما المرء فى علياء أهوى ومنحط اتيح له اعتلاء
وبينا نعمة اذ حل بؤسى وبؤسى اذ تعقبه ثراء
وجعلها نوعا اخر من دقة النظم واتحاد الوضع ، على أن دقة المقابلة مع حسن
التقسيم يظهران فيها جدا . ومما هو فى طبقة هذه الأبيات ، ان لم يكن أعلى ، قول
قطرى . يصف الدنيا ويحذر من الغرور بها ،

« مع أن امرا لم يكن منها فى حيرة إلا أعقبته بعدها عبرة ، ولم يلق من سرائها
بطنا ، إلا منحتة من ضرائها ظهرا ، وحرى إذا اصبحت له منتصرة ، ان تمسى
له خاذلة متنكرة ... وإن أنت امر من غضارتها نعما ، ارهفته من نوائبها نفاسا ،
ولم يمسى امروء منها فى جناح أمن إلا أصبح منها على قوادم خوف ... »

ففى هذه الفقرة من لطف المقابلة ، ودقة النظم مالا يخفى مكانه من الحسن
والروعة . وأقل منه فى ذلك قول البحرى :

فقف مسعدا فيهن إن كنت عاذرا وسر مبعدا عنهن إن كنت عاذلا
وقول أبى تمام :

فمصعد من حسن ومصوب وجمع من نعته ومفرق

وإن كانت هذه الآيات لا تدفع هي الأخرى عن حظ من الجمال ، وحسن التنسيق ، بما فيها من مقابلة ، واتحاد في الأجزاء لكنها ، خلت من الدلالة على التعاقب بين المعاني المتقابلة ، مما يظهر في أبيات القضاعى ، وخطبة قطرى ، فى كلمة « بينا » وعبرة « لم يس .. إلا أصبح » فهى تبعث فى النفس تخيلا ، قوى الأثر ، عظيم الوقع ، فى مبلغ دلالة على السرعة فى الانتقال من حال إلى حال . وكذلك تتبع الشيخ باقى الأنواع التى ذكرها فى هذا الفصل . والتى جعلها الغاية التى لا مطمع وراءها لشاعر أو ناثر .

وهذان لونا من النظم الفاخر ، والبلاغة الساحرة . أحدهما ما توخيت فيه معانى النحو وأسارره ، والثانى ما جمع إلى توخى معانى النحو ، حظا من براعة التصوير ، وتناسق التعبير ، ودقة الصنع ، واتحاد الوضع ، وكون جملة تؤلف وحدة متشابهة ، وعبرة منتظمة الشكل متماسكة .

وهناك لون ثالث ، لم ينل شرف واحد من الجنسین السابقین . فلم يحو كثيرا من التصرف البارع فى معانى النحو وخصائصه ، وإن كان لم يخل من جملة منه ، ولم يحز شيئا من دقة الصنع ، واتحاد الوضع ، من نحو ما جاء فى المزاوجة وما إليها . قال الشيخ فى هذا الجنس : « وأعلم ان من الكلام ما أنت تعلم إذا تدبرته إن لم يحتاج واضعه إلى فكر وروية حتى انتظم ، بل ترى سبيله فى ضم بعضه إلى بعض سبيل من عمد إلى لآل فخرطها على بعض . لا يريد فى نضده ذلك أن تجيء له منه هيئة أو صورة معنى لا يحتاج ان تصنع فيه شيئا . غير أن تعطف لفظا على مثله - كقول الجاحظ : « جنبك الله الشبهة ، وعصمك من الحيرة ، وجعل بينك وبين المعرفة نسبا ، وبين الصدق سببا ، وحبب إليك التثبت ، وزين فى عينك الإنصاف ، وإذاقك حلاوة التقوى ، وأشعر قلبك عز الحق ، وأودع صدرك برد اليقين وطرده عنك ذل اليأس ، وعرفك ما فى الباطل من الذلة ، وما فى الجهل من القلة .. فما كان من هذا وشبهه ، لم يجب به فضل إذا وجب إلا بمعناه أو بمتون ألفاظه ، أو ذوق نظمه وتأليفه ، ذلك أنه لا فضيلة حتى ترى فى الأمر مصنعا وحق تجدد إلى التغير سبيلا^(١) » .

(١) ص ٧٦ - ٧٧ .

هذا كلامه عن مثل هذا النظم ، يرى أن ليس فيه فضل إلا في معناه أو متون ألفاظه ، وهو حين مدح هذا الكلام في الأسرار^(١) إنما مدحه من جهة براءته من تكلف السجع والموازنة ، مع أنه خطبة الكتاب ، وللخطبة شأنها لدى المؤلفين في الاحتفال لها بالسجع والموازنة . لأنها تقع من الكاتب موقع المطالع من القصيد .

ونحن مع عبد القاهر في أن مثل هذا النظم ساذج ، وإن التصرف في معاني النحو فيه ليس من طبقة التصرف في مثل قول الصولي في آياته السابقة . فلو اذنبنا دهر وانكر صاحب ، وإن صنعة النظم فيه ليست من طراز الصنعة الدقيقة المتحدة الوضع ، كالمرآة والمقابلة . ولكن فيه مع سذاجته في التصرف النحوي ، تناسبا وتلاؤما بين معاني الجمل ، وترتيا واتساقا في الفكرة ، فالصلة ظاهرة بين تجنب الشبهة والعصمة من الحيرة ، ثم بين هذين وبين المعرفة والثبت ، وهكذا بقية الجمل . ثم فيه كذلك جمال الألفاظ ورشاقها وبراعتها من التكلف والتصنع ، مع موافقتها للمعاني التي جاءت لها ، ووقوع كل لفظ منها في موقعه ، وحيث يطلبه المعنى . حتى لو أردت أن تغير . فتضع لفظاً مكان صاحبه . لاختل المعنى ، وذهب حسنه « فالتقوى » تلائمها « الخلاوة » ولا تصلح لهما إلا « اذاق » ، و « الحق » يناسبه « العزة » ولا يجعل معها أبلغ كلمة « أشعر » للطفها في الدلالة على الهيبة ، والإشعار بالجلالة والقوة ، وهكذا « برد اليقين » و « ذل اليأس » وما إليها من كلام الجاحظ .

نعم ، في مثل كلمة الجاحظ جمال كثير . كالذي أبناه ، ولكن صنعة النظم فيه أقل من الصنعة التي هناك ، ومجهود الناظم في نظمه أضعف من ذلك المجهود ، وهذا بين ظاهر . ولكن هل يفقد هذا النظم الساذج حظه من الروعة والتأثير ؟ ، وهل تنزل درجته في البلاغة عن ذلك النظم الدقيق الصنع ؟ .

ظاهر كلام عبد القاهر على ذلك . إذ يرى أن لا فضيلة حتى ترى في الأمر مصنعا يدق النظر فيه ، ويصعب الوصول إليه ، ويرى الشيخ نوار أن عبد القاهر قد بالغ هنا وهضم هذا النظم حقه ، فهو نظم بليغ إلا أن بلاغته أقل من بلاغة ذلك النظم الدقيق ، والبلاغة درجات كثيرة^(٢) .

(١) ص ٦ ، ٧ .

(٢) مذكرة النظم ص ٣٥ - ٣٧ .

أما نحن فنقول . إن مثل قول الجاحظ لا يقل بلاغة وروعة عن ذلك النظم السابق ، وأن قل عنه في دقة الصنع وكثرة التصرف ، وفرق كبير بين درجات النظم ودرجات البلاغة على أن مرجع البلاغة إلى التأثير ، وأصابة الغرض ، وذلك كما ينشأ عن براعة النظم ودقة الصنع ، يجيء بحسن الاستعارة وروعتها ، ورشاقة الألفاظ وحلاوتها ، وبكثرة مائها ، وصفاء ديباجتها ، ولطف مواقعها وحسن دلالتها .

ألا وإن للسذاجة حظها من القبول والحلاوة ، وأن للبساطة موقعها وأثرها في القلوب ولدى الطباع ، إذا أصيب بها موضعها وأحسن لها ما يلائمها ، وهو حظ لا يقل عن حظ النظم الدقيق ، والصنعة العجيبة . وذلك شأن المصنوعات التي أكثر الشيخ من القياس عليها ، ترى منها ما قد يكون جماله وظرفه في قلة تركيبه ، وسذاجة تأليفه ، وبعده عن كثرة الصنعة والتفنن ، ومنها ما يكون شرفه وفضله في دقة تركيبه ، وكثرة التصرف في اجزائه وصوره ، ولكل من هذين مجال ، وحظ مستقل من الجمال ، ولو أنك أحلت فجعلت كلاً في صورة صاحبه ، لربما ضاع الجمال منهما معا ، وسقطت قيمتهما في آن واحد ... وهكذا المعاني وصورها ، منها مالا ينقاد لدقيق الصنعة وكثرة التصرف . فلو أكره عليها ذهب رواؤه وغاض مأؤه ، لأن طبيعتها لا تقبل التركيب ، ولا تبدى عن حسنها إلا مع السذاجة ، ولو أنك قلت للشيخ عبر - وهو القدير على التعبير - عن معاني الجاحظ بعبارة فيها من دقيق الصنع ما في المزاوجة أو التقسيم أو المقابلة ، وسائر فنون الصنعة الفاخرة لخانه التوفيق ، وجاءت له في وضع متكلف لا يحسن العبارة عن المعنى المراد .

نعم ، المجهود في الأول أشق ، والصنعة فيه أدق ، ولكن المجهود والصنعة شيء ، والبلاغة والطلاوة شيء آخر .

فالأسلوب الذي لم يرق عبد القاهر ليحتاج إلى كثير من المهارة والدقة في حسن اختيار اللفظ ، وصقل الأسلوب ، وربط المعاني وهي مهمة لا يسلم عليها إلا أرباب الطبع السليم ، والحس اللطيف .

والقرآن الكريم أصدق شاهد في هذه القضية ، فإنه في أكثر سور وآياته ، لا يعدل بهذه الطريقة شيئاً . فيعرض المعاني في صورة طلقة سلسلة ، وعبارات سهلة مطبوعة

ليس فيها من كثرة الصنع ودقة التراكيب شيء ، فتجىء وهى الغاية فى الرشاقة وخفة الروح ، وترى الطرب بها يهز الأعطاف ويسحر الأبواب .

وأكبر الظن أن الذين قالوا بتفاوت بلاغة القرآن ، وأن منه ما يعلو بعضه على بعض ، وإن كان الجميع معجزا ، إنما تأثروا برأى الشيخ فى قول الجاحظ وما يشبهه ، وإنهم رأوا فى بعض آى القرآن وسوره نظما لم يعتمد أكثر من التعاطف ، ونسق المفردات والجمال . نسقا فقالوا إن هذا النظم أقل بلاغة مما اعتمد الدقة والتفنن فى التأليف والنظم ، ومن العجب أن هذا القول يكاد يلقى الإجماع عند علماء البلاغة .

ونحن نخالف فى ذلك أشد الخلاف ، ونرى أن بلاغة القرآن فى مستوى واحد وفى درجة سواء ، وإن ما جاء منه فى معرض التعاطف والنسق ، لا يقل بلاغة فى معناه وموقعه وفى الغرض الذى سيق له . عن ذلك الذى جاء دقيق النظم ، عجيب الصنع مفتن الأسلوب ، وأن الأول عليه من الإشراق والبهجة ، ومن الرونق والبهاء مالا يقل بلاغة وسحرا عن الثانى واقتنانه . نعم لو قالوا إن القرآن درجات فى الصياغة والنظم . قلنا : صدقوا وأصابوا ولما استطعنا أن ننكر عليهم ذلك لأنه ظاهر مكشوف . فاما التفاوت فى البلاغة بناء على التفاوت فى النظم . فلا ، لان البلاغة كما قلنا ليست هى النظم وحده حتى تتفاوت بتفاوته ، وتجيء درجاتها وفق درجاته ، وإنما دقة النظم عنصر من عناصرها ، ولها غيره عناصر أخرى . كما سبق بيانه . لاتقل عنه شأنا فى الحسن وكثرة الرونق ، وهزا القلوب وعطف الأسماع ، وخذ مثلا . قول الله تعالى فى سورة النبأ : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا * وَخَلَقْنَاهُ أَزْوَاجًا * وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا * وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا * وَبَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شَدَادًا * وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا * وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا * لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا * وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴾ (١) . فمن ذا الذى يستطيع أن يقول فى هذا النظم إنه أقل بلاغة من قوله تعالى فى سورة الليل ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾ لان الأول خال من الصنعة التى فى الثانى ، وأنه لم يحو ما حوى

(١) الآيات ٦ - ١٦ (٣) صد ٣١٠ .

(٢) الآيات ٥ - ١٠ .

من رعاية التعادل بين الشرطين ، ودقة التقابل بين اجزاء المعنيين ، نعم ، لا ينبض أحد بهذا القول . إلا إذا حسب البلاغة تقاس بجهاز آلى يتحسس صور التراكيب ومبلغ التصرف فى اجزائها . فأما إذا كان مع الناس فى ان مقياس البلاغة هو الذوق والاريجية ، وماغشى الكلام من الرونق والطلاوة ومن القبول والحلاوة فلا .

والمثل فى هذا الشأن - ولله المثل الأعلى - ما قاله القاضى الجرجانى فى الوساطة^(١) : « وقد ترى الصورة تستكمل شرائط الحسن ، وتستوفى أوصاف الكمال ، وتذهب فى الافق كل مذهب ، وتقف من التمام بكل طريق ، ثم تجد أخرى دونها فى انتظام المحاسن والتام الخلقة وتناصف الاجزاء وتقابل الأقسام ، وهى أحظى بالحلاوة وأدنى إلى القبول ، واعلق بالنفس ، وأسرع مازجة للقلب . ولو قيل لك : كيف صارت هذه الصورة - وهى مقصورة عن الأولى فى الأحكام والصنعة ، وفى الترتيب والصيغة ، وفيما يجمع أوصاف الكمال ، وينتظم أسباب الاختيار - احلى وارشق واحظى وأوقع . لاقمت السائل مقام المتعنت المتجائف ، ورددته رد المستبهم الجاهل ، وكذلك منظومه ومنثوره ومجمله ومفصله ... »

ورحم الله القاضى الجرجانى وأهل الذوق جميعا معه ، فلقد أصاب هنا . ثم أصاب . وكذلك وقع الآمدى فى الموازنة حيث وقع القاضى الجرجانى ورمى فأصاب^(٢) . وهكذا تلتقى نظرات الطبع ولفتات الحس . ومن هنا ندرك السر فى ترديد الأول عن القرآن : « والله ان له حلاوة وان عليه لطلاوة » وانه لم يقل : والله انه لعجيب الصنع غريب النسج .

ثم نعود فنقول .. هما مذهبان فى صياغة الكلام ونظمه . لا يدفع أحدهما الآخر عن فضله ، ولا يزاحمه فى مكانه وشرفه ، ولا يغض قدر احدهما من قدر صاحبه ، لان لكل منهما طبعه وخصائصه ، ومجالا قد انفرد به ، وجاء على خطه من البلاغة والجمال .

فمن المعانى ما يكون الترابط بينها قائما على التقابل والتضاد ، أو التسبب والترتيب . كالشرط والجزاء ، أو يكون بعضها مقدمة للآخر ، أو قسيما له ، أو

(١) ص ٣١٠ الموازنة للآمدى طبعة صبيح .

(٢) ص ١٧٧ الموازنة للآمدى طبعة صبيح

دليلا عليه أو شبيها به ، فهنا تجد الصنعة سبيلها ، ويتيسر للمؤلف الحاذق . أن يتفوق في التصوير ، ويتلطف في التأليف ، ويضع الأجزاء وضعا متحدا ، وينسقها تنسيقا بديعا . بحيث تجد منها صورة متحدة الوضع ، دقيقة الصنع ، كالزواجة والمقابلة ، وما إليهما .

ومن المعاني ما يكون الترابط بينها على غير هذا السبيل ، ولا تكون صلاتها من هذا القبيل ، فلا يزيد الأمر فيها على أن اجتمعت حول غرض واحد ، والتقت في جهة قصد إليها النظم ، كتعداد نعمة أو تنسيق أوصاف أو ترتيب قصص ، فيكون عمل المؤلف حينئذ في ترتيب المعاني ، ورعاية التناسب بين الأول منها والثاني ، وان يجمع كلا إلى شكله ، ويضعه في مكانه . وأن يختار لكل معنى ما يطلبه من اللفظ وما يلائمه من العبارة في سهولة ويسر ، وتناسب نغم ... فإذا وفق لاصابة ذلك كله ، فقد أتى بما شئت من جمال وارك صورة السحر الحلال . وجاءت البلاغة هنا تفاخر تلك البلاغة وتباهيها وتجلس على مثل عرشها وتساميا .

وأذن ليس في القرآن ما يعلو بعضه بعضا في البلاغة ، وإنما فيه ما يفترق بعضه عن بعض في صورة النظم والتأليف . تبعا لطبيعة المعنى والغرض ، وكل في الصورة التي ليس وراءها غاية في حسن العرض ، وجمال النسق وروعة الأداء ، وقوة التأثير .

فإن سأل سائل : إذا كان المذهبان فيما ترى في درجة من البلاغة سواء . فما بال الشيخ يعلي من قيمة النظم الدقيق الصنع ، ويجعل ذلك الثاني أقل منه في المكانة والفضل ؟ فالجواب . إن الشيخ ينظر إلى درجات النظم ، ومجهود الناظم ومبلغ قدرته وبراعته . وليس من مخالف في صحة هذا النظر من تلك الجهة . وأن النظم الدقيق طريقة اوعر . والحذق فيه أظهر ، بحيث لا يتأتى لكل قائل ولا يرتاض لكل ناظم ، فهو كما قال الشيخ « شأو قد تحسر دونه العناق ، وغاية يعي من قبلها المذاكي القرح » فأما النظم الآخر ، وهو ما كان في مثل قول الجاحظ فإن الخطب فيه أسهل والمسلك إليه أقرب ، وليس الاحتفال له والاحتياال عليه من نوع ما يكون هناك . وهذا كما قلنا . شيء يرجع لطبيعة المعنى ومادته ، فليس يضير هذا الثاني أن يكون سمحا طيعا وسهلا لنا ، ولا يرفع من شأن الأول أن يكون صعبا ألبا ، وجموحا . وحظهما من الحسن والحلاوة . لان ذلك مرده إلى حظ كل منهما من القبول

والتأثير ، ودرجته من الصفاء والبهاء ومقدار شوطه في السفارة عن المعنى ، والتجلية عن الغرض ، وتلك هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، وهم قد جعلوها البلاغة . بل وجعلوا درجة الكلام في البلاغة على قدر رعايتها والتوفيق في اصابتها .

ذلك ما نرى في تفاوت أساليب القرآن . ولسنا نحيل في ذلك على شيء سوى الذوق وصحة الطبع . وكتاب الله بين يديك ، فتصفح منه ما شئت وستراه ينتقل بك من نظم إلى نظم ، ومن ديباجة إلى ديباجة ، ويخرج بك من فن إلى فن فسائل نفسك ، واستشهد حسك . هل ترى في بعض ذلك من فتور ؟ أو تفاوتاً في القوة والتأثير ؟ وحل تحس لبعضه طغياناً على مشاعرك لست تحس مثله لبعضه الآخر ؟ لم إذن روعة التأثير سواء ، وسرعة ممازجة القلب بمقدار ؟

وخلاصة الرأي . أن درجات النظم غير درجات البلاغة ، وإن النظم الدقيق الصنع لا يرجح في ميزان البلاغة عن النظم الساذج إذا حسن لفظه ، واتسق معناه ، وأصاب موضعه .

على أن مفهوم النظم في عصر عبد القاهر لم يكن قد استقر وتحددت دلالاته ، وإنما كان يستعمل استعمالات غامضة ومضطربة ، ظلت معها دلالاته مائعة مختلطة .

« والنظم » هو محور كتاب عبد القاهر « دلائل الإعجاز » ومناطق بحثه - وهو جوهر نظريته في الإعجاز وفي الخلق الأدبي على السواء .

لذا أخذ - منذ البداية - يرسى مفهوم « النظم » - ويحدد ، بما يقطع الشركة فيه ، وينفى اللبس عنه .

« وما يجب إحكامه . الفرق بين قولنا : حروف منظومة ، وكلم منظومة . وذلك أن نظم الحروف هو : تواليها في النطق وليس نظمها بمقتضى عن معنى ، ولا الناظم لها بمقتضى في ذلك رسماً من العقل ، اقتضى أن يتحرى في نظمها ما تحراه » .

وأما نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك ، لأنك تقتضى في نظمها آثار المعاني وترتيبها على حسب ترتيب المعاني في النفس .

« فهو إذا نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض ، وليس النظم الذى معناه : ضم الشيء إلى الشيء كيف جاء واتقن » .

معنيان للنظم : أحدهما ينصب على نظم الحروف فى الكلم ، والآخر على نظم الكلام فى الجمل والعبارات والأول غير معتبر هنا لأمر :

« إن » النظم « الذى يتحدث عنه - فى مقام الحديث عن الفصاحة والبلاغة نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض ولا كذلك نظم الحروف .

« وإنه لا حال للفظه غيرها يعتبر فى نظمها إذا أنت عزلتها عن دلالتها ، وصارت مجرد صوت .

« وإنه لو كان النظم يقصد به إلى اللفظ نفسه ، بحيث يصبح توالى الألفاظ فى النطق نظما ، لكان ينبغى ألا يختلف حال اثنين فى العلم بحسن النظم أو غير الحسن فيه ، لانهما يحسان بتوالى الألفاظ فى النطق احساسا واحدا ولا يعرف أحدهما فى ذلك شيئا يجهله الآخر .

« وأوضح من ذلك كله : أن النظم الذى يتواصله البلاء ، وتتفاضل مراتب البلاغة من أجله : صنعة يستعان عليها بالفكرة لا محالة : وإذا كانت مما يستعان عليه بالفكرة ، ويستخرج بالروية ، فينبغى أن ينظر فى الفكر بماذا تلبس : أبا لمعانى أم بالألفاظ ، فأى شيء وجدته الذى تلبس به فكرك من بين المعانى والألفاظ . فهو الذى تحدث فيه صنعتك ، وتقع فيه صياغتك ونظرك وتصويرك ، فحال ان تفكر فى شيء ، وأنت لا تصنع فيه شيئا ، وإنما تصنع فى غيره ، لو جاز ذلك لجاز أن يفكر البناء فى الغزل ليجعل فكره فيه وصلة أن يصنع من الآخر ، وهو من الإحالة المفرطة : «^(١) .

النظم عنده هو : ترتيب الألفاظ فى النطق على حسب ترتيب المعانى فى النفس ، فهو ترتيب مقتضى عن معنى : يجرى أولا فى المعانى ، ثم ترتب الألفاظ فى النطق على وفقها .

(١) دلائل الإعجاز ص ٤٠ .

وإذا « فلانظم ولا ترتيب في الكلم حتى يعلق بعضها ببعض ، وينبنى بعضها على بعض ، ونجعل هذا ، بسبب من تلك ^(١) » .

إذا بدأت الكلمة تتحدد ، وتخرج عن الاشتراك ، واتصل الحديث عن « النظم » بالحديث عن التعليق بين الكلم ، فما التعليق وما فحواه ؟

« لا محصول له غير ان تعمد إلى اسم فتجعله فاعلا لفعل أو مفعولا ، أو تعمد إلى اسمين فتجعل أحدهما خيرا عن الآخر : أو تتبع الإسم أسما على أن يكون الثاني صفة للأول . أو تأكيذا له أو بدلا منه ، أو تحيىء باسم بعد تمام كلامك على أن يكون صفة أو حالا أو تمييزا ، أو تتوخى في كلام هو لاثبات معنى أن يصير نفيا أو استفهاما أو تمنيا ، فتدخل عليه الحروف الموضوعه لذلك .

أو تريد في فعلين أن تجعل أحدهما شرطا في الآخر . فتحيىء بهما بعد الحرف الموضوع لهذا المعنى . أو بعد اسم من الاسماء التي ضمنت معنى ذلك الحرف . وعلى هذا القياس ^(٢) :

الآن يخرج عبد القاهر من الإجمال - في حديث الفصاحة - إلى التفصيل ، كما شرط لكنه التفصيل الذي يدل على الوجه ، ويكشف عن لب الفكرة ، ويفتح الطريق لمتابعتها .

وإذا كان هذا القدر من شرح « التعليق » الذي هو جوهر « النظم » يبرز لنا علاقة ما بين « النظم » أو بين تركيب النحوى للجمل ، وما بين نظم البياني لها ، فليس ذلك وضعاً لليد على الخصائص وحدها . واحدة واحدة كما قطع على نفسه .

« واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الموضع الذي يقتضيه علم النحو : وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيف عنها ، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها ^(٣) » .

(١) دلائل الإعجاز ص ٤٥ .

(٢) دلائل الإعجاز ص ٤٥ .

(٣) دلائل الإعجاز ص ٦٤ .

« إنا لا نعلم شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه
(لاحظ أسلوب القصص) ، فينظر في الخبر إلى الوجوه التي تراها في : زيد منطلق ،
وزيد ينطلق ، وينطلق زيد ، وزيد المنطلق ، والمنطلق زيد ، وزيد هو المنطلق ، وزيد
هو منطلق .





الفصل الرابع

النظم والصياغة فى البلاغة العربية





النظم قلما يخطيء العربى الأصيل فى مراعاة طريقه ولكن المحدثين والمولدين زحف عليهم الخطأ من كل مكان ، وخاصة لشدة اختلاط الألسنة ، وامتزاج الأجناس . ومن ثم بدأ يظهر فساد الأذواق عند المحدثين والمولدين واضحا ، كما بدأت الألسنة العربية يدب إليها اللحن والخطأ بتأثير العدوى وفساد الملكات . وأدى هذا إلى الاهتمام بوضع قواعد البلاغة والبيان ، كما وضعت ضوابط اللغة . وصاحب نشأة قواعد البلاغة . وضع أصول للنقد الأدبى على يدى قدامة بن جعفر وغيره .

ويروى الجاحظ أن يحيى بن خالد البرمكى اجتلب بعض الاطباء من الهند ، وكان فيهم بهلة الهندى ، فسأله بعض من فى المجلس : ما البلاغة عند أهل الهند ؟ فقال : عندنا فى ذلك صحيفة مكتوبة ، لا أحسن ترجمتها لك ، ولم اعالج هذه الصناعة ، فائق من نفسى بالقيام بخصائصها وتلخيص لطائفها . قال أبو الأشعث . فلقيت بتلك الصحيفة التراجمة فإذا فيها « أول البلاغة اجتماع الة البلاغة ، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش قليل الحظ ، لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة ، ولا الملوك بكلام السوقة .. (١) » .

ولقد نسبوا إلى « بزرجمهر » الحكيم المشهور كلمة فيها كثير من أصول البلاغة ، وذلك قوله : « إن فضائل الكلام خمس ، إن نقص منها فضيلة واحدة سقط فضل سائرها ، وهى ان يكون الكلام صدقا ، وان يوقع موقع الانتفاع به ، وان يتكلم به فى حينه ، وأن يحسن تأليفه ، وان يستعمل منه مقدار الحاجة . ورذائله بالضد من ذلك (٢) . »

وهذه الروافد لا تغنى من الحق شيئا ، والحق ان العقل العربى بمساعدة الذوق والموهبة والملكة بدأ يضع القواعد الأولى لعلوم البيان أو البلاغة وأخذت هذه القواعد تتدرج نحو الكمال العملى شيئا فشيئا بمرور الأيام ، ومداومة البحث فى كل جديد من شأن البلاغة وقواعدها .

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ٧٨ ، ٧٩ .

(٢) الموازنة ص ١٨٣ .

وهناك ادعاء . إن البلاغة العربية عدت على بلاغة اليونان وأبوابها ، واقسامها حتى امثلتها ، هكذا .

كتب الدكتور طه حسين مقدمة عن البيان العربى من الجاحظ إلى عبد القاهر ، قدم بها لكتاب « البيان » أو كما يسمونه « نقد النثر » الذى يزعمون انه لقدمه بن جعفر وهو لابن وهب ، فأثبت فى هذه المقدمة ان : الهيلينية اثرت فى البيان العربى عن طريقين : طريق غير مباشر ، بما افاد المتكلمون الذين أسهموا فى نشأة البيان ، من منطق وفلسفة يونانية ، وطريق مباشر : بترجمة كتاب « الخطابة » لارسطو على يد اسحاق بن حنين المتوفى سنة ٢٩٨هـ . ثم انتهى من ذلك إلى قوله : « واذن لا يكون ارسطو المعلم الأول للمسلمين فى الفلسفة وحدها ، ولكنه إلى جانب ذلك معلمهم الأول فى علم البيان^(١) » .

وقد سارت فى هذا المجال الدكتور سهير القلماوى فى صدر كتابها « المحاكاة » ، كما تأثر بهذا رأى الكثير من تلامذة الدكتور طه حسين .

ونحن لا نستطيع أن ننكر أن الفلسفة والمنطق فى بيئة المتكلمين قد تركا أثرهما فى البيان الذى نشأ فى تلك البيئة ، بل أثبتنا ذلك فعلا فى حديثنا عن مدرسة المتكلمين ، وإنما الذى يعيننا هو الطريق المباشر ، وهو كتاب . الخطابة لارسطو ، وقد يكون فى الذى قدمناه فى نشأة البلاغة ما يدفع هذا القول أبلى دفع ، لأننا قد وقفنا على مقدار الشوط الذى بلغته البلاغة فى عهد الجاحظ وابن قتيبة ، اعنى قبل ان تصل إلى كتاب الخطابة الذى ترجمه اسحاق بن حنين .

على ان الفترة التى توفى فيها اسحاق بن حنين وهى سنة ٢٩٨هـ هى التى وضع فيها ابن المعتز كتابه « البديع » وان هذا الكتاب - وان لم يطلع عليه - فيه وفى كتاب معاصره قدامة بن جعفر ، أثر ظاهر للفصل الثالث من كتاب الخطابة أو قسم العبارة منه ، وأن تصور هؤلاء المؤلفين من العرب للتشبيه ، والجاز والمقابلة ، ووزن الكلام والفصول قريب مما تجده فى المواضع المذكورة من كتاب الخطابة ، نعم أنهم

(١) ص ٣١ مقدمة نقد النثر بقلم د . طه حسين .

تحاشوا ان ينقلوا عن المعلم الأول جميع الأمثلة التى كان يمثل بها ، لا لشيء اكثر من أنهم لم يفهموا هذه الأمثلة ، إلا مثال التشبيه والمجاز^(١) .

ولم يكن ابن المعتز فى كتابه « البديع » متأثرا بكتاب أرسطو ، وليس فيه ظل له ، بل ان ما سماه أرسطو مجازا سماه ابن المعتز استعارة كما أسماه قبله الجاحظ وابن قتيبة ، لان كلمة مجاز . كانت أعم من الاستعارة وغيرها كما رأينا قبل .

قالوا إن الاخطل دخل على معاوية وقال له : يا أمير المؤمنين ، انى امتدحتك بابيات فاسمعهما ، فقال له معاوية : إن كنت شبهتني بالأسد والحية والصقر ، فلا حاجة لى بها ، وإن كنت قلت كما قالت الخنساء فى أخيها صخر :

فما بلغ المهدون للناس مدحه وان اطنبوا إلا الذى فىك أفضل
وما بلغت كف امرئ متناولا إلى المجد إلا والذى نلت أطول

فأنشد ، فقال الأخطل : والله لقد أحسنت ولقد قلت فىك بيتين ، ماهما بدونهما ، ثم أنشد :

إذا مات مات العرف وانقطع الندى فلم يبق إلا من قليل صرد
وردت اكف السائلين وأمسكوا عن الدين والدنيا ، بحلف مجدد

فإذا كان العرب قد شبهوا بالأسد حتى ابتذل على أيام معاوية ، فكيف يستكثر على المؤلفين العرب ، وهم يؤلفون فى بلاغة العرب ، ويستشهدون بشعر العرب ، ان يشبهوا بالأسد ؟ وكيف تكون امثلتهم اذا شبهوا به منقولة عن أرسطو ؟ ولم كل هذا الاسراف .

تأثر قدامة فى « نقد الشعر » بمنطق أرسطو وفلسفته ، وربما يكون قد تأثر بخطابته ايضا ، وذلك واضح فى تعريفه للشعر ، وفى حصر المعانى الشعرية ، وفى الفضائل الأربع ، وفى تلك الطريقة التى سلكها فى التقسيم والاستقراء ، ولكن هل سلم له ذلك ؟ وهل رضيت بيئة الأدب العربى والبلاغة العربية عن هذه اليونانية التى

(١) ص ١١ ، ١٢ من مقدمته .

سيطرت عليه ؟ وهل تأثر احد من هذه البيئة بما قال قدامة ؟

لقد اجاب الدكتور نفسه على هذه الأسئلة التى فى تلك المقدمة منها : اذ قال فيها مرتين : ان ادباء العرب لم يعفوا كتاب قدامة من شديد استنكارهم ، وعظيم سخطهم^(١) .

ونحن نقول : إن هذا الكتاب - اعنى نقد الشعر - لقى ثورة عامة من مختلف البيئات ، ويكفى ان نذكر ان الآمدى ألف كتابا مستقلا ، تتبع فيه اغلاط قدامة فى هذا الكتاب^(٢) ، وانه مع ذلك ناقشه فى كتاب الموازنة مرات^(٣) .

وكذلك ناقشه العسكرى فى الصناعتين ، والخفاجى فى سر الفصاحة^(٤) ،

اما « نقد النثر » وهو المحاولة الثانية لسيطرة الهيلينية على البيان العربى « فإنه أبعد ما يكون عن قدامة ، ولست ادرى ابدا . كيف يثور الأدباء على كتاب نقد الشعر ، مع تفاهة ما فيه من فلسفة ومنطق ، ثم يعفون « نقد النثر » - لوصح أنه لقدامة - من ثورة كبرى على ما فيه من منطق وفلسفة لا بل ليس فيه المنطق والفلسفة فحسب ، وإنما تمثل فيه كل علم ، من نحو واشتقاق وأصول وكلام ، واخلاق وأدب بحث ومناظرة ، وكل ما يتصل بالإبانة عما فى النفس بمختلف صورها ، فقد حشد فيه ذلك كله تحت عنوان « البيان » .

وأعجب من هذا كله انا لم نجد اشارة ما إلى هذا الكتاب ، لا من معاصرى قدامة ، ولا من المتأخرين عنه بنحو قرن ونصف ، ممن ثاروا على « نقد الشعر » فكيف يصح مع هذا ان يكون الكتاب لقدامة ، ثم يغمض هؤلاء جميعا اعينهم عنه ، وعما فيه . فلا يذكرونه ولا يشيرون إليه ؟ ذلك مالا يكون .

واعجب مما مضى جميعه ، ان يرى الدكتور طه حسين فى هذا الكتاب اثراً بينا لكتاب ارسطو فى البلاغة . مع ان مؤلف الكتاب ينص فيه على ان الاستعارة والتشبيه

(١) ص ١١ ، ١٩ .

(٢) ص ١٢٥ من الموازنة .

(٣) ص ١٢٤ ، ١٢٥ .

(٤) الصناعتين ص ١٢٠ ، ١٢١ وسر الفصاحة من ٢٥٠ .

واللحن (الكناية والتعريض) والرمز والوحي والأمثال . خاصة بالعرب ولغتهم^(١)
فيكف يقول ذلك في الوقت الذي ينقل فيه عن الهيلينية أو يتأثر بها ؟

ثم لا صلة بحال بين حديث الاستعارة في نقد الشعر ، وحديثها في نقد النثر^(٢)
وقد اثبت البحث ان الكتاب هو لابن وهب . وليس لقدامة وان اسمه : « البرهان »
ويقول الدكتور طه حسين : إن حظ قدامه في نقد النثر لدى ادباء العرب كان
كحظه لديهم في نقد الشعر في ان لم يرتضه احد منهم ، ولم يتأثر به كاتب أو
ناقد^(٣) .

وإذا كان حظ الكتابين لدى ادباء العرب هذا الإهمال ، فاین اذن تلك الغارة
أو السيطرة التي تصورها الدكتور طه وصورها من الهيلينية على البيان العربي ؟ واذ
قد اعترف بأن الكتابين ، الموثوق بأتهما لقدامة . والمدعى انهما له ، لم يؤثر في
احد من أدباء العرب ، فأننا نبني على هذا الاعتراف وحده أن البيان العربي ظل
عربيا في تدرجه ونمائه ، كما كان عربيا في نشأته وأوله ، وأنه لم يكن عالة على بيان
اليونان ولا ناقلا عن ارسطو ، اللهم إلا بعد القرن الخامس ، أعنى بعد ان كتب
الخفاجي وعبد القاهر ما كتبوا في البيان العربي . وذلك هو منطق التاريخ الصحيح ،
ومنطق العقل المنصف .

هذا ولو اراد باحث ان يقسم البحث تقسيما جديدا لكان خير طريق يبلغ به
هذه الغاية ان يقسم البلاغة قسمين :

الأول النظم :

وهو خصائص التراكيب في افادة المعاني والاغراض ، أو هو - كما يقول الشيخ
عبد القاهر - تنوخي معاني النحو ، ومباحثه وهي التي عرفت في العصر الثاني « بعلم
المعاني » .

(١) ص ٥٢ .

(٢) ص ٦٤ من نقد النثر ، ص ١٠٥ من نقد الشعر .

(٣) ص ٢٣ مقدمة نقد النثر .

الثاني البديع :

وهو في عرف العصر الأول كل شيء مستظرف في الكلام من استعارة وتشبيه ، وكناية وتمثيل وسجع وجناس وتقسيم وطباق ، وهو ما قسمه المتأخرون إلى بيان وبديع .

وقد تحدث علماء الأدب واللغة عن مسائل كثيرة في الصياغة والنظم ، فسيبويه في « الكتاب » يتكلم عن بعض مسائل في النظم وكذلك فعل الجاحظ وابن قتيبة وقدامة والآمدي والقاضي الجرجاني والباقلاني في « إعجاز القرآن » ، وابن رشيق في العمدة وابن شرف القيرواني .. وغيرهم .

وهكذا رأينا أن المدرسة القرآنية تعرضت لكثير من أبواب النظم والصياغة وإن ابا عبيدة والجاحظ وابن قتيبة تكلموا في الحذف والذكر والتقديم والتأخير ، والإيجاز والإطناب ، ولكننا نقول هنا إنهم لم يعرفوا هذه الأبحاث بالمعنى الذي تناولها به الشيخ في « دلائل الإعجاز » ، فكل الذي عناهم من ذكرها أنها وقعت في كلام العرب . كما وقعت في القرآن الكريم ، فاما أسرار ذلك ونكاته فلم تقع لهم ، ولم نثر عليها بعد في كلامهم . بل لسنا ندرى إلى اليوم ماذا كان يريد الجاحظ بالضبط من نظم القرآن . ولا كيف كان يتصوره في كتابه الذي ألفه في الاحتجاج لهذا النظم . كما أننا لم ندر أيضا كيف كان يفهمه الواسطي في كتابه « إعجاز القرآن بنظمه » غير أنه يخيل لنا أن الواسطي ربما كان يعنى النظم الذي عناه الشيخ لأنه جعله مناط الإعجاز ، فلا يبعد أن يعرض لفضل النظم الكريم على نظم الكلام العرى . حتى صار معجزا ، وذلك يكون بالبحث في خصائص النظمين وأسرار الفضل فيهما ، وقد يقوى هذا التخيل عندما تعرض الشيخ لكتاب الواسطي ، وشرحه مرتين كما سبق .

ومهما يكن الأمر . فإن النظم الذي يكتب عنه عبد القاهر في دلائل الإعجاز إنما نبت أولا في بيئة النحاة ، وكان له من بحثهم نصيب غير قليل ، لكن ليس على أنه من فن البلاغة ، وإنما وقع لهم على أنه من النحو بحسب ما كانوا يتصورونه أولا . ولسنا نلجأ في إثبات ذلك إلا إلى الشيخ نفسه ، فقد أكثر في « دلائل الإعجاز » من النقل

عن النحاة والاستشهاد بأقوالهم والبناء على أصولهم وفضولهم عن التقديم واغراضه وقد افتتحها بما نقل عن سيويه من دلالة التقديم على الاهتمام . وبما نقل عن النحاة في تفسير معنى الاهتمام ثم اعتبر ذلك أصلا في هذا الباب^(١) . وكذلك كان جواب ابى العباس المبرد الفيلسوف الكندى . في الفرق بين قول العرب . عبد الله قائم . وإن عبد الله قائم ، وإن عبد الله لقائم من أن الأول إخبار ، والثاني جواب سائل ، والثالث جواب منكر مفتاحا لما كتب الشيخ في لطائف « أن » ومواقعها^(٢) ، وأصلا للباب الذى سماه المتأخرون « أحوال الإسناد الاخيرى » وايضا نقل الشيخ عن ابى على الفارسى في الشيرازيات ما قال النحاة في « إنما » وانها بمعنى ما وإلا ، وان ابا على . أصاب من كلام العرب ما يدل على صحة قولهم ، وذلك قول الفرزدق :

أنا الذائد الحامى الذمار وإنما يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلى

فكان ذلك علما للشيخ في بحثه عن خصائص « إنما » ومواقعها في القصر^(٣) ونقل ايضا عن أبى على . في التذكرة . رأيه فيما اشكل من النظم من مثل قول الشاعر : « نم وان لم انم كراى كراكا^(٤) » .

فالبحت اذن في خصائص التراكيب وأسرارها وجد أولا عند النحاة ، وكان من جملة النحو عندهم قبل ان تتميز فنون العربية ويعرف اختصاص كل فن وحدوده . وكتاب سيويه مشحون بأمثال المباحث التى ذكرناها عن عبد القاهر هنا^(٥) .

ولعل اهتداء النحاة أولا إلى خصائص النظم هكذا . مع ما عرف عن عبد القاهر من التضلع في هذا النحو ، يفسر لنا سر توفيق الشيخ في الكشف الواسع عن حقيقة

(١) دلائل الإعجاز ص ٨٤ ، ١٠١ .

(٢) ص ٢٤٢ .

(٣) ص ٢٥٢ .

(٤) ص ٢٨٥ .

(٥) النحو النحاة ص ٣٦ ، ٤١ ، ٤٨ .

النظم ، وخواصه وأسراره ولطائفه . فاستطاع بذوقه الدقيق المتمكن ، وطبعه القوى المتدفق . ان يتتبعه في صوره الكثيرة وأوضاعه المختلفة ، وان يبرز من محاسنه ويرفع من اقداره .



الصياغة عند عبد القاهر

يقرر عبد القاهر في كتابه « دلائل الإعجاز » أن إعجاز القرآن إنما هو في نظمه . وإن كان هو وحده صاحب هذا الرأي الذى نادى بذلك ، ولكننا نرى أنه ليس من السابقين إليه ، فقد سمعنا منذ عصر الجاحظ ومن جاء بعده بمن تحدثوا عن نظم القرآن واعتباره من جهات إعجازه ، ووضعوا كتباً تدل أسماؤها من أول الأمر على أنها وضعت لتبين أن إعجاز القرآن في نظمه . وعبد القاهر في نفسه يعترف بأن العلماء قبله قد أنزلوه أحسن منزل ، وأحلوه من الإعجاز أشرف محل ، ومن هنا كان « اطباقيهم على تعظيم شأن النظم وتفخيم قدره ، والتنويه بذكره ، واجماعهم الأفضل مع عدمه ، ولا قدر لكلام اذا هو لم يستقم له ، ولو بلغ في غرابة معناه ما بلغ ، وتبهم الحكم بأنه الذى لا تمام دونه ، ولا قوام إلا به ، وأنه القطب الذى عليه المدار ، والعمود الذى به الاستقلال^(١) » وقد تعرضنا بإيجاز في صدر هذا الفصل للحديث عن النظم قبل عبد القاهر ، ورأينا ان مدلوله من ناحية ، وتفرد به بالإعجاز ، أو اشتراكه مع غيره في ذلك من ناحية أخرى . قد اختلف من كاتب إلى آخر ، ورأينا ان تفسير القاضى عبد الجبار له يعتبر اقرب التفسيرات شها برأى عبد القاهر برغم ما بينهما من اختلاف . حيث تفرد عبد القاهر بمحصره في دائرة محددة ، وحيث جعله دون غيره ، المرجع الأساسى في الإعجاز ، وتناوله بالبيان والشرح ، ورد عنه كل الشبهات وارتفع على يديه إلى مستوى النظرية الكاملة ، وان امتدت جذوره في التراث العربى قبله . إذ يكفيه فضلا وفخرا - وقد رأى هذه المنزلة الرفيعة للنظم عند العلماء - « الا يرضى من نفسه بأن يجد فيه سبيلا إلى مزيد علم ، وفضل واستبانة ، وتلخيص حجة ، وتحرير دليل ثم يعرض عن ذلك صفحا ، ويطوى دونه كشحا ..^(٢) » .

(١) دلائل الإعجاز ص ٦٣ .

(٢) دلائل الإعجاز ص ٦٣ .

والنظم يعد المرجع الأساسى للإعجاز والمقياس الصحيح الذى يجب ان يعرض عليه الكلام الأدبى . لتبين به مواطن الحسن أو القبح فيه .. والنظم عند عبد القاهر هو « توخى معانى النحو فيما بين الكلم على حسب الأغراض التى يساق لها الكلام » .. ولا يمكن تصور النظم إلا من خلال علاقات متشابهة بين اجزاء الكلام^(١) .

وهكذا وضع عبد القاهر للبلاغة والنقد الأساس الصحيح ، وهو نظم الكلام والعلاقات بين مفرداته على وجه يصور المعنى^(٢) .

وقد وجد عبد القاهر فى دراسته النحويه مفتاحا لقضية النظم محط الإعجاز وموطن الفصاحة فالنحو عنده لم يقف عند صنع العبارة السليمة من الخطأ ، بل تعدى ذلك إلى صنع العبارة البليغة^(٣) .

فالنظم عنده هو أن تضع كلامك الذى يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصول ، وتعرف مناهجه التى نهجت ، فلا تزيف عنها ، أو بعبارة أخرى . هو توخى معانى النحو فيما بين الكلم^(٤) .

نعم كانت نظرات النحاة فى النظم ارهاصا لما أبدعه الشيخ فيه ، وكان بالنحو ثم افتداه بطبعه وذوقه ولطف حسه فى فهم الكلام ، جديرا بأن يظهره عليه ، وأن يسلس له من قياده ويبلغ به الغاية التى تراها فى دلائل الإعجاز ، فتصويره لبلاغة النظم وجلاله وكشفه عن لطائفه وأسراره ، واسترساله فى مسائله وأبوابه ، مع البسط الواسع والعرض الساحر ، وكثرة المثل والشاهد ، وبراعة النقد والتحليل . كل ذلك من عمل الشيخ وحده فهو من غير شك صاحب الفضل فى هذا النظم البلاغى ، بهذا الأسلوب الحديث . وشاهد ذلك أن جميع من كتبوا فى البلاغة والنقد ممن

(١) ص ٧ من اسرار التركيب البلاغى - د . سيد عبد الفتاح حجاب - طبعة أولى ١٣٩٧ / ١٩٧٧ - المكتبة التوفيقية - القاهرة .

(٢) ٢٣ سمات البلاغة عند عبد القاهر - د . محمد جلال الدهبى ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م .

(٣) ٢٨ المرجع السابق - وراجع من أسرار التنزيل للرازى - تحقيق عبد القادر عطا - نشر دار المسلم .

(٤) ٢٨٢ دلائل الإعجاز .

عاصروا الشيخ أو سبقوه . لم يفهموا من النظم أكثر من سلامة الأسلوب من الخطأ والحوشية والتعقيد . ترى ذلك فيما كتب الأمدى والقاضى الجرجانى ، وأبو هلال والخفاجى ، وابن رشيق^(١) .

وإذا كانت تلك الأسباب هى التى هيات للشيخ هذا الفضل ، فإن هناك ، فكرتين قويتين وقضيتين عظيمتين . قد استحثتا من قريحته ، وأذكتا من حميته ، وكانتا ذاتى أثر بالغ فى نضاله عن النظم وتجواله فى افتانه ، وهما قضية الإعجاز وقضية اللفظ والمعنى .

فإما الإعجاز فإن الشُّبه والاراء التى قامت حوله قد أفضت مضجع الشيخ ، ودفعته دفعا لاهوادة فيه ، إلى تغرس مافى الأساليب من أسرار ، وتعرف مالها من مزايا وخصائص ، وكيف تتفاضل حتى تصل إلى الإعجاز ، ذكر ذلك كثيرا كلما جعل يؤاخذ على سوء نظر أو خطأ فى النظم قد يؤدى إلى إبطال معنى الإعجاز والتحدى^(٢) .

وأما قضية اللفظ والمعنى فقد شغلت باله كثيرا ، وابدأ فيها وأعاد اذ رأى من الناس من ينسب الفضيلة والشرف إلى اللفظ وحده ويهمل أمر المعنى ، كما رأى منهم من يفخم قدر المعنى ويجعل المزية والحسن له ، فهب فى وجه أولئك وهؤلاء معا . وتعقب شبههم بكل سبيل وأبان عن أخطائهم بكل دليل ، وانتهى به رأى أن حسن اللفظ وحده لا يعدو أن يكون عذبا رشيقا وخفيفا على اللسان مألوفاً^(٣) ، وإن حسن المعنى وحده لا يعدو دلالته على أدب فاضل أو خلق كريم أو حكمة صائبة^(٤) . فاما الشرف الذى به تتفاضل اقدار الكلام ، وتباين مراتبه ومنازله ، حتى يكون منه المعجز الذى لا يرام والسابق الذى لا يدرك والنازل الذى

(١) الموازنة ص ١٢٥ ، ١٢٦ ، والوساطة ص ٨٧ ، ٨٨ ، ٣١٢ ، ٣١٦ والصناعتين ص ١٠٦ ، ١١٠ ، ١٢٠ - ١٢٨ وسر الفصاحة ص ١٠٣ - ١٠٧ ، ١٥٠ - ١٥٢ والعمدة ج ١ ص ١٧١ - ١٧٥ .

(٢) دلائل الإعجاز ص ٣٢ ، ٤٧ ، ٨٥ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤ ، ٣٠٠ ، ٣٦٤ ، ٣٩٨ .

(٣) اسرار البلاغة ص ٣ ، ٤ ، دلائل الإعجاز ص ٣٦ ، ٣٥٣ ، ٤٠١ .

(٤) الدلائل ص ١٩٦ .

لا يوزن . فإنما هو شيء غير اللفظ . والمعنى هو النظم ، وتوخى معانى النحو فيما بين الكلم على حسب الأغراض والدواعى .

تلك حكمة عبد القاهر فى قضية اللفظ والمعنى والنظم ، أعطى كلا حقه بلا غبن أو حيف ، وأنزل كلا المنزلة التى لا يعدوها ، ومع ما فى هذه الحكمة من وضوح وصراحة ، وأن الشيخ كرر النص عليها فى مواضع القوانين والأصول ، فإن الخطيب - رحمه الله - رأى فى مجموع كلام الشيخ ما يوهم التناقض فى هذه الحكمة . أو بعبارة أخرى رأى أن يوجد فيه تناقضا فى هذه الحكمة ثم حاول التوفيق . لكن « السعد » فى الطول لم يرتض من الخطيب هذا التوهم ، ودافع عن الشيخ بكلام الشيخ نفسه فى دلائل الإعجاز حتى رمى الخطيب بأنه لم يتصفح دلائل الإعجاز حق التصفح^(١) .

يقول عبد القاهر فى فضل الصياغة أو النظم :

« وقد علمت أطباق العلماء على تعظيم شأن النظم وتفخيم قدره » .



(١) المطول بحاشية السيد ص ٢٨ .

الفصل الخامس

النظم عند عبد القاهر





وإذا كانت شهرة عبد القاهر بالبلاغة قد ذاعت وطارت في كل مكان فإن شهرته بالنقد لاتقل في الحقيقة عن شهرته بالبلاغة ، وكتابه يمثّلان الذروة في كتب النقد العربى ، ويمثّلان منهجاً كاملاً فيه .

وفي كتاب « دلائل الإعجاز » الذى ألفه عبد القاهر ليحمل مقدمات في دراسة الإعجاز القرآنى ، يتحدث عن نظريته في النظم كأساس لفهم فضيلة الكلام وبلاغته ، وفهم إعجاز كتاب الله كذلك .. الكتاب في قمة كتب البلاغة والبيان .

وفي كتابه « أسرار البلاغة » يتحدث بتفصيل عن المعانى الشعرية وأقسامها ، ويخص التشبيه والتمثيل والاستعارة والمجاز والكناية وضروب التخييل بالشرح والإيضاح والبيان .

وفي مقدمة « دلائل الإعجاز » يعرف عبد القاهر النظم بأنه « تعلق الكلم بعضها ببعض ، وجعل بعضها بسبب من بعض ، ويجعل وجوه التعلق ثلاثة : تعلق اسم بإسم وتعلق اسم بفعل ، وتعلق حرف بهما . ويشرح وجوه التعلق شرحاً وافياً .

ويؤكد أن نظم الكلام يقتضى فيه آثار المعانى وترتيبها حسب ترتب المعانى في النفس . وليس النظم في مجمل الأمر عنده إلا أن تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه علم النحو ، وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف مناهجه فلا تزيج عنها . فمداره على معانى النحو ، وعلى الوجوه والفروق التى من شأنها أن تكون فيه ، وليس هو إلا توخى معانى النحو في معانى الكلم ، فلا معنى للنظم غير توخى معانى النحو وأحكامه فيما بين الكلم ، أو فيما بين معانى الكلم بتعبير آخر ، والفكر لا يتعلق بمعانى الكلم المفردة مجردة عن معانى النحو أو منطقاً بها على وجه لا يتأتى معه تقدير معانى النحو وتوخيها فيها .

ويشير عبد القاهر إلى أنه من الضرورى في معرفة الفصاحة أن تضع اليد على الخصائص التى تعرض في نظم الكلام ، وأن الألفاظ لاتفاضل من حيث هى ألفاظ مجردة ولا من حيث هى كلم مفردة ، وإنما تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التى تليها أو ما أشبه ذلك ، مما لاتعلق له بصريح اللفظ .

ويأخذ في تفصيل أمر المزية ، وبيان الجهات التي منها تعرض ، فيتحدث عن وجوه النظم في التقديم والتأخير ، والذكر والحذف ، والتعريف والتنكير ، والوصل والفصل ، والقصر . ويفيض في ذكر ضروب تأكيد الخبر ، ويعرض التشبيه والتمثيل والكناية والمجاز والاستعارة ، مقررًا أن المزية فيها ليست في أنفس المعاني التي يقصد المتكلم إليها بخبر ، ولكنها في طريق إثباته لها ، وتقريره إياها ، وإذا عرض للاستعارة في بيت ابن المعتز المشهور :

سالت عليه شعاب الحى حين دعا أنصاره بوجه كاللذنانير

أكد أن الاستعارة هنا ، على لطفها وغرابتها ، إنما تم لها الحسن بما توخى في وضع الكلام من التقديم والتأخير ، وتجدها وقد ملحت ولطفت بمعاونة ذلك ومؤازرته لها ، وكذلك يفصل الكلام على مدخل النظم في بلاغة الاستعارة في قوله تعالى : « واشتعل الرأس شيبا » ، وقوله : « وفجرنا الأرض عيونا » ، ويتحدث عن التشبيه في مثل : زيد كالأسد ، وكأن زيدا الأسد ، وأن في المثال الثانى زيادة في معنى التشبيه ليست في الأول ، وهذه الزيادة لم تكن إلا بما توخى في نظم اللفظ وترتيبه ، حيث قدم الكاف إلى صدر الكلام ، وركبت مع « أن » .. كما يتحدث عن ضروب المجاز العقلى أو المجاز في الإسناد وعن المجاز بالحذف وعن ضروب الكناية في النسبة ، ومدخل النظم في بلاغتها .

بل إنه ليقرر أن الاستعارة والكناية والتمثيل وسائر ضروب المجاز من مقتضيات النظم ، وعنهما يحدث ، وبها يكون ، لأنه لا يتصور أن يدخل شيء منها في الكلم وهى أفراد ، فإذا قلنا في لفظ « اشتعل » من قوله تعالى : « واشتعل الرأس شيبا » إنها في أعلى المرتبة من الفصاحة لم توجد تلك الفصاحة لها وحدها ، ولكن موصولا بها الرأس معرّفا بالألف واللام ، ومقرونا إليهما الشيب منكرًا منصوبا ، فليست الفصاحة صفة للفظ « اشتعل » وحده .

ويقرر عبد القاهر في « دلائل الإعجاز » أن المزية للكلام إنما هى في نظمه باعتبار ملاءمة معنى اللفظة لمعنى اللفظة التي تليها ، وليس الفضل والمزية في الكلام أن تنظر في مجرد معناه ، فالفصاحة والبلاغة عبارة عن خصائص ووجوه تكون معانى الكلام عليها ، وزيادات تحدث في أصول المعانى ، كالذى أريتك فيما بين « زيد كالأسد »

و« كأن زيدا الأسد » ، ولانصيب للألفاظ من حيث هي ألفاظ فيها بوجه من الوجوه ، فأنفس الكلم بمعزل عن الاختصاص والمزية ، فليس للفظ من حيث هو لفظ حسن ومزية ، إذ المزية ليست بمجرد اللفظ ، وإنما تقع في اللفظ مرتبا على المعاني المرتبة في النفس ويجعل عبد القاهر كذلك ذروة المزية والبلاغة ، وهي الإعجاز القرآني ، في النظم وحده ، لا في شيء آخر .

وبذلك ينتهي عبد القاهر من عرض نظريته في النظم . هذا العرض الجديد ، لتلك النظرية الجديدة أيضا .

وخلاصة ما يقرره عبد القاهر هو :

١ - أنه لا فصل بين الألفاظ ومعناها ، ولا بين الصورة والمحتوى ، ولا بين الشكل والمضمون ، في النص الأدبي .

٢ - أن البلاغة في النظم ، لافي الكلمات مفردة ، ولا في مجرد المعاني ؛ والباحث عن الإعجاز عليه أن يتبعه في النظم وحده .

٣ - أن النظم هو في مراعاة معاني النحو وأحكامه وفروقه ووجوهه فيما بين معاني الكلم .

٤ - ولذلك أخذ عبد القاهر في كتابه الخالد « دلائل الإعجاز » يعرض لوجوه تركيب الكلام وفق أحكام النحو ، مستنبطا الفروق بينها ، عارضا لأسرار المزية والحسن والبلاغة فيها .

وهذه النظرية ، وهي نظرية النظم ، بما اشتملت عليه من تطبيقات وشروح واسعة ، جديدة كل الجدة عند عبد القاهر ، إذ لم يعرضها أحد قبله هذا العرض المتميز . ولذلك جهد عبد القاهر ، في إيضاحها ، ودفع الشبه عنها ، والرد على من يعترضه فيها ، من أول « دلائل الإعجاز » إلى آخره .

ففلسفة عبد القاهر البيانية تنهض على أساس فكرة النظم ، وإذا كان هناك من يذهب إلى أن عبد القاهر لم يكن مخترعا لها ، وإنما كان هو الذي بسط القول فيها ، وأقام على أساسها فلسفة كتابه ، فقد سبقه إليها الواسطي صاحب كتاب « إعجاز

القرآن في نظمه « وظهرت كذلك هذه الفكرة واضحة في الصراع الذي أثاره امتزاج الثقافات ، وتعصب حملة اليونانية لفلسفة اليونان ومنطقهم ، ودفاع حملة العربية عن تراثهم وثقافتهم ومنها الثقافة النحوية . فإن كتاب الواسطي المفقود لا ينهض حجة على ذلك ، وتعصب المثقفين بالثقافة المترجمة المعاني ولمنطق أرسطو وعدم اهتمامهم بالألفاظ ، ودفاع علماء العربية عن الأسلوب العربي ، وتنقصهم المعاني أرسطو ومنطقه ، كل ذلك لا شبه بينه وبين نظرية النظم عند عبد القاهر .

وعلى أى حال . فإننا لا نذهب إلى أن رد البلاغة والإعجاز إلى النظم هو الجديد عند عبد القاهر فحسب ، ولكن الجديد عنده هو شرحه لنظرية النظم . هذا الشرح الجديد حقاً ، وتطبيقه عليها هذه التطبيقات النقدية البانية الواسعة ، وفرق على أية حال بين أية نظرية في استنباتها وبينها في قمة ازدهارها . وإذا كان عبد القاهر لا يخرج بالنظم عن معاني النحو ، وكانت فكرة النظم عنده تقوم على معرفة هذا النحو وما ينشأ عن الكلمات حين تتغير مواضعها من المعاني المتجددة المختلفة ، فإن الجديد عند عبد القاهر أيضاً هو أنه استخدم معاني النحو وأحكامه استخداماً جديداً بيانياً نقدياً محضاً ، وإلا لكان في النحو غنى عن كل ما قرره عبد القاهر الجرجاني والبلاغيون من أحكام بيانية بلاغية ، وذلك ما يرده عبد القاهر ويؤكد نفيه له في كتابه ، كما يقرر في كل فصل من فصول « الدلائل » أن لا سبيل إلى معرفة الإعجاز إلا « النظر في الكتاب الذى وضعناه » واستقصاء التأمل لما أودعناه وأنه « الطريق إلى البيان والكشف عن الحجة والبرهان ، وأن لا معنى لبقاء المعجزة بالقرآن إلا الوصف الذى كان له معجزاً ، والطريق إلى العلم به موجود أى ممكن، ويكرر في الكتاب أنه يقرر أموراً صعبة على الفهم ، وغير ذلك مما جعل عبد القاهر يشحن ذهنه في تقريرها . وذهن القارئ والسامع في تقبلها لوجه الجدة فيها ، وأنه المبتكر لها .

ولقد اعتمد عبد القاهر على الذوق الأدبي الخالص اعتياداً كلياً في كل ما قرره من أحكام ، مؤكداً أنه لا يصادف القول في هذا الباب موقعاً من السامع ، ولا يجد لديه قبولا ، حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة ، وحتى يكون ممن تحدّثه نفسه بأن لما يومئذ إليه من الحس واللفظ أصلاً وحتى يختلف الحال عليه عند تأمل

الكلام ، فيجد الأريحية تارة ، ويعرى منها تارة أخرى ، وحتى إذا عجبته تعجب ، وإذا نهته لموضع المزية انتبه .

وقد أثرى عبد القاهر البلاغة العربية والبيان العربى إثراء جليلا ، بما كتب فى نقد الأساليب وتحليلها ، واستنباط الفروق والخصائص فيما بينها ، وبما عرض له من أحكام نقدية دقيقة ، على الأساليب وضروب النثر والشعر .

إنه ليس لنظرية عبد القاهر فى النظم من القيمة ما لتطبيقاته ، فهناك يظهر ذوقه العربى السليم ، ذلك الذوق الذى لا يمكن أن يغنى فى الأدب عنه شيء ، ونظرية عبد القاهر فى رمزية اللغة وفى التحليل اللغوى^(*) ورد المعانى إلى النظم ، ومنهجه فى نقد النصوص نقداً موضعياً ، ماهى إلا مراحل تنتهى به إلى الذوق الذى يدرك الدقائق ويحس بالفروق ، ووجوه الكلام وأسراره . وإحساس عبد القاهر الأدبى السليم سابق دائماً لعقله ، والحكم على النظم عنده هو النظر فى المعنى منظوماً والذوق هو الفيصل الأخير فى الحكم على هذه الدقائق . وإلى هذا فطن عبد القاهر بحسه الأدبى الصادق ، فالذوق عنده يتحكم فى نظم المعانى التى نعب عنها . وتسوق فكرة النظم عند عبد القاهر إلى تخطى الإعراب والجملة البسيطة إلى الجملة المركبة ، التى عنى بها فى دلائل الإعجاز وفى أسرار البلاغة كذلك فى مبحث التشبيه عناية فائقة ، ونقدها نقداً بيانياً أدبياً .

إن الأدب عند عبد القاهر فن لغوى ، فأخضاع الفكرة أو الإحساس للفظ . هو ما يميز الأدب عن غيره من الفنون ، وهذه النظرية الصحيحة هى موضع اعتزازنا بتفكير عبد القاهر ، والذى يبدأ بنظرية فلسفية فى اللغة ، ثم ينتهى إلى فن الذوق الشخصى الذى هو مرجعنا الأخير فى دراسة الأدب ، وما النقد إلا وضع مستمر للمشكلات البيانية ، فلكل جملة أو بيت مشكلته التى يجب أن نعرف كيف نراها ونصفها ونحكم فيها ، وهذا هو النقد الموضعى كما رآه الجرجانى .

(*) راجع كتاب منطق اللغة (نظرية عامة فى التحليل اللغوى) - طبع بغداد - تأليف ياسين خليل .

لقد اهتدى عبد القاهر إلى كل تلك الحقائق ، التى إذا كان لها فى تفكير اليونان القدماء ما يماشىها ، وفى علم اللسان الحديث ما يؤيدها ، فإن الفضل الأكبر فى الوقوع عليها يرجع إلى مواهب عبد القاهر الفطرية المبتكرة الخصبية .

وبعد فهذه هى نظرية النظم ، التى يرجع إلى عبد القاهر الجرجانى فضل ابتكارها والكشف عنها ، والتى تعد طليعة كاملة لعلم البلاغة العربية ، كما جمع أشداته السكاكى (٦٣٦هـ) من كلام عبد القاهر فى كتابيه الخالدين : دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة .



الفصل السادس

جنور الأسلوبية في دلائل الإعجاز





- ١ -

يعرض عبد القاهر في الدلائل لكثير من المشكلات الأدبية والبيانية والنقدية في عصره ويبدى رأيه فيها .

١ - فقد أبان في كتابه مدى قيمة عنصر المعنى في النص الأدبي ، ومع ذلك فقد رد ردا شديدا على من يقدمون الشعر لمعناه ، ويقللون من الاحتفال باللفظ ، ولا يرون الجودة إلا في أن يكون الشعر قد أودع حكمة وأدبا ، واشتمل على تشبيه غريب ومعنى نادر ، فإن مالوا إلى اللفظ شيئا : لم يحفلوا بغير الاستعارة ، وعبد القاهر وإن جارى هؤلاء قليلا فيما عرض له من السرقات والأخذ في المعاني الشعرية ، إلا أنه يقرر في قوة وجرة خطأ من يجعل الأساس في الحكم على الشعر . هو المعنى ، ويقول : إن الأمر بالضد . فإننا لا نرى متقدما في علم البلاغة مبرزا في شأوها إلا هو ينكر هذا الرأي ويزرى على القائل به ، ويغض منه ، ويقول عبد القاهر : إنهم لم يعيوا تقديم الكلام بمعناه لجهلهم بأن المعنى إذا كان أدبا وحكمة وكان غريبا نادرا فهو أشرف ، بل عابوه من حيث كان من قضى في جنس من الأجناس بفضل أو نقص ألا يعتبر في قضيته تلك إلا الأوصاف التي تخص ذلك الجنس وترجع إلى حقيقته ، وأن لا ينظر فيها إلى جنس آخر وإن كان من الأول بسبيل أو متصلا به اتصال مالا ينفك منه ، ويقرر أثر ذلك أن الصياغة والنظم هما اللذان يجب النظر إليهما في الحكم على الشاعر والشعر ، فمعلوم أن سبيل الكلام سبيل الصياغة والتصوير ، وأن سبيل المعنى الذي يعبر عنه سبيل الشيء الذي يقع فيه التصوير ، ثم يستدل بكلام الجاحظ في خطأ من يقدم الشعر بمعناه حيث يقول الجاحظ : والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والقروي والبدوي ، وإنما الشأن في إقامة الوزن ، وتخفيف اللفظ ، وسهولة المخرج ، وصحة الطبع ، وجودة السبك ، وإنما الشعر صياغة وضرب من التصوير^(١) . يقول

(١) ١٦٧ المرجع .

بعض الباحثين^(١) : إن الشاعر لا يكفيه أن يحصل قدرا من الأفكار^(٢) حتى يستطيع أن يقول الشعر : فنحن لا نحكم على الشاعر إلا بعد أن نقرأ الألفاظ التي كتبها .. ويقرر عبد القاهر كذلك أنه لا يكون لاحدى العبارتين مزية على الأخرى حتى يكون لها في المعنى تأثير لا يكون لصاحبها ، والمعنى في مثل هذا يراد به الغرض الذى أراد المتكلم أن يثبت أو ينفيه نحو أن نقصد تشبيه الرجل بالأسد ، فنقول « زيد كالأسد » ، ثم تريد هذا المعنى بعينه فتقول « كأن زيدا الأسد » تجعله من فرط شجاعته أنه لا يتميز عن الأسد ، ولا يقصر عنه حتى يتوهم أنه أسد في صورة آدمي ، فانظر هل كانت هذه الزيادة إلا بما توخى في نظم اللفظ وترتيبه^(٣) .

٢ - ويقرر عبد القاهر أن الكلام على ضربين :

(أ) ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده .

(ب) وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ولكن يدلك اللفظ على معناه الذى يقتضيه موضوعه في اللغة ، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض ، ومدار هذا الأمر على الاستعارة والكناية^(٤) ، ويقول إنك إذا عرفت هذا المعنى فها هنا عبارة مختصرة ، وهى أن تقول المعنى ومعنى المعنى ، تعنى بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ ، وبمعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى ثم يفضى بك ذلك المعنى إلى معنى آخر^(٥) . والمعنى الأولى والمعنى الثانوى اصطلاحان بلاغيان مشهوران .

وقد فهم النقاد نظرية عبد القاهر تلك ، وتوسعوا فيها ، فقالوا : إن المعنى الذى تجده في معاجم اللغة للكلمة ما هو إلا النواة التى يتجمع حولها طائفة من المعانى الثانوية ، وكثير من المهارة الأدبية عبارة عن اطلاق تلك المعانى

(١) ١٠٩ ، ١١٠ الأدب وفنونه . عز الدين اسماعيل .

(٢) ويقول مالاراميه : إن الشعر لا يصنع من الأفكار ، ولكنه يصنع من الألفاظ (١٠٩ المرجع نفسه) .

(٣) ١٦٨ و ١٦٩ المرجع .

(٤) ١٧٠ و ١٧١ المرجع .

(٥) ١٧١ المرجع .

الثانوية لتؤثر تأثيرها في الخيال^(١) فإن أسمى ما يصل إليه فن الأدب أن يجعل الإيجاء اللفظي من السيطرة وبعد المدى والحيوية والقوة بمكان عظيم^(٢) فالشاعر يستخدم المعنى العقلي للألفاظ ، ويستخدم كذلك علاقاتها وإيجاءاتها وصوتها وإيقاعها والصور الموسيقية وغيرها مما تكونه الألفاظ حين يربط بعضها ببعض^(٣) .

٣ - وكذلك عرض عبد القاهر للفظ وأبان أهميته في الأداء والتعبير البياني ، ولكنه نفى أن تكون الفصاحة صفة اللفظ من حيث هو لفظ ، وذلك في مواضع كثيرة من الكتاب^(٤) .

٤ - ويتحدث عبد القاهر في إعجاز القرآن حديثاً موجزاً . لأنه مشغول بوضع الأساس الذي يحلل كلام الله الكريم على ضوئه . ليعرف إعجازه ، ويبين عظيمته ومنزلته في البلاغة ، وإن كان قد رد على من ذهب مذهب الصرفة ، وأن الإعجاز في القرآن سببه صرف الله العرب عن معارضته .. وهكذا يفيض عبد القاهر في دلائل الإعجاز في شرح النظم وأسرار بلاغته ، مما يجعلنا نؤمن بأن « دلائل الإعجاز » قد ألفه عبد القاهر لبيان هذه النظرية البيانية الخطيرة والتطبيق عليها ، وذلك أنه جعل معرفة أسرار الإعجاز مرتبطة بمعرفة أسرار النظم ودقائقه ووجوهه ، وقد سمي كتابه « دلائل الإعجاز » ، وهو لا يريد حجج الإعجاز ، لأنه لم يتكلم عنها ، ولم يعرض لها ، وإنما يريد بالدلائل . معنى مقدمات ، فكأنه يقول هذه هي مقدمات لفهم قضية الإعجاز وأسراره ، ومن ثم جعل الكتاب من أوله إلى آخره خاصاً بقضية النظم . وبالتطبيق النقدي عليها . لان معرفة هذه القضية مقدمة لمعرفة أسرار الإعجاز نفسه .

ومن الخطأ الجسيم ما ذهب إليه كثير من الباحثين من أن « دلائل الإعجاز » خاص ببحوث علم المعاني^(٥) ، والدليل على هذا الخطأ الفادح

(١) ص ٤٠ قواعد النقد الأدبي .

(٢) ٣٨ المرجع .

(٣) ١٠٢ . الأدب وفنونه ، .

(٤) راجع ٢٥٧ ، ٢٩٧ الدلائل .

(٥) راجع مثلاً : ١٦١ البيان العربي .

واضح ، فإن عبد القاهر لم يخص كتابه دلائل الإعجاز ببحوث علم المعاني وحده ، بل تكلم فيه كذلك عن التشبيه . والاستعارة والمجاز والكناية ، مما هو من مباحث علم البيان .

وتكلم فيه كذلك عن التقسيم والمزاوجة والسجع وغيرها مما هو من مباحث علم البديع ، فكيف يكون الكتاب في علم المعاني ؟

لا ، إنما ألف عبد القاهر كتابه لعرض نظريته الجديدة حول النظم^(١) ، والتطبيق عليها ، ليعلن مما يقرره في ذلك كله مقدمة لفهم قضية إعجاز القرآن الكريم ، وإذا كانت كلمة المعاني وردت عند عبد القاهر في الدلائل فإنه لم يكن يعنى بها نفس المدلول الذى جعله السكاكى لها وعناه بها . -



(١) كتب مصطفى ناصف عن النظم في دلائل الإعجاز في حوليات كلية الآداب بجامعة عين شمس يناير ١٩٥٥ ، وللدكتور محمد نائل كتاب بعنوان « نظرية العلاقات أو النظم بين عبد القاهر والنقد العربى الحديث » .

- ٢ -

ونظرية النظم أهم النظريات في البلاغة العربية ، وبخاصة بلاغة عبد القاهر ، وقد عرض لها عبد القاهر في « دلائل الإعجاز » عرضا واسعا ، وكذلك أشار إليها في « أسرار البلاغة » ، وسوف نستعرض آراءه هنا بتفصيل .

في مقدمة دلائل الإعجاز يعرف عبد القاهر النظم بأنه « تعليق الكلم بعضها ببعض ، وجعل بعضها بسبب من بعض ، ويجعل وجوه التعلق ثلاثة :

١ - تعلق اسم باسم بأن يكون خيرا عنه أو حالا منه أو تابعا له . الخ .

٢ - « اسم بفعل » ، فاعلا له أو مفعولا به أو مطلقا أو فيه أوله أو معه .

٣ - « حرف بهما وذلك على وجوه عدة » .

ويشير إلى أنه من الضروري في معرفة الفصاحة أن نضع اليد على الخصائص التي تعرض في نظم الكلام ، وأن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة ، ولا من حيث هي كلم مفردة ، وإنما تثبت لها القضية وخلافها في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ .

ويؤكد أن نظم الكلم يقتضى فيه آثار المعاني وترتيبها على حسب ترتيب المعاني في النفس .

وليس النظم في مجمل الأمر إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو ، وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف مناهجه ، فلا تزيع عنها ، فمداره على معاني النحو وعلى الوجوه والفروق التي من شأنها أن تكون فيه . وليس هو إلا توخى النحو في معاني الكلم ، فلا معنى للنظم غير توخى معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلم أو فيما بين معاني الكلم بتعبير آخر .

والفكر لا يتعلق بمعاني الكلم المفردة مجردة من معاني النحو أو منطوقا بها على وجه لا يتأتى معه تقدير معاني النحو وتوخيها فيها .

ويأخذ في تفصيل أمر المزية وبيان الجهات التي منها تعرض :

فيعرض للفظ يطلق والمراد به غير ظاهره مما يدور في الأعم على شيئين : المجاز والكناية ويقرر أن المزية فيهما وفي التمثيل ليست في أنفس المعاني التي يقصد المتكلم إليها ولكنها في طريق اثباته لها وتقريره أياها .

ويعرض للاستعارة في بيت ابن المعتز :

سالت عليه شعاب الحى حين دعا أنصاره بوجه كالدينانير

مؤكد أنها على لطفها وغرابتها إنما تم لها الحسن بما توخى في وضع الكلام من التقديم والتأخير ، وتجدها قد صلحت ولطفت بمعاونة ذلك ومؤازرته لها وكذلك يفصل الكلام على مدخل النظم في بلاغة الاستعارة في قوله تعالى : ﴿ وَأَشْتَغَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ ، وقوله ﴿ وَبَحَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ .

ويتحدث عن التشبيه في مثل زيد كالأسد ، وكأن زيدا الأسد ، ففي المثال الثاني زيادة في معنى التشبيه ليست في الأول ، وهذه الزيادة لم تكن إلا بما توخى في نظم اللفظ وترتيبه . حيث قدم الكاف إلى صدر الكلام وركبت مع أن .

كما يتحدث عن ضروب من المجاز العقلي أو المجاز في الإسناد وعن ضروب الكناية في النسبة .

ويقرر أن الاستعارة والكناية والتمثيل وسائر ضروب المجاز من مقتضيات النظم . وعنهما يحدث ، وبها يكون . لأنه لا يتصور أن يدخل شيء منها في الكلم وهي أفراد ، فإذا قلنا في لفظة « اشتعل » من قوله تعالى ﴿ وَأَشْتَغَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ إنها في أعلى المرتبة من الفصاحة . لم توجب تلك الفصاحة لها وحدها ، ولكن موصولا بها الرأس معرfa بالألف واللام ، ومقرونا إليهما الشيب منكرًا منصوبا ، فليست الفصاحة صفة للفظ « اشتعل » وحده .

ويتحدث عن وجوه النظم في التقديم والتأخير ، وفي الحذف ، ويتكلم على فروق الخبر من مثل . زيد منطلق . ومنطلق زيد . وزيد المنطلق . والمنطلق زيد . وعلى أسرار الاتيان بالذى ، وعلى فروق في الحال ، لها فضل تعلق بالبلاغة . وعلى أسرار الفصل والوصل ، وعلى تقديم كل على النفي وتأخيرها عنه ، وعلى مثل ﴿ وَجَعَلُوا

«لِللّهِ شُرَكَاءُ ابْجَنَ» ، وعلى أسرار التنكير في مثل ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ ، وعلى ضروب من تأكيد الخبر وعلى القصر .

ويقرر أن المزية للكلام إنما هي في نظمه باعتبار ملاءمة معنى اللفظة لمعنى اللفظة التي تليها ، وليس الفضل والمزية في الكلام أن تنظر في مجرد معناه .

فالفصاحة والبلاغة عبارة عن خصائص ووجوه تكون معاني الكلام عليها ، وزيادات تحدث في أصول المعاني ، كالذي أريتكم فيما بين زيد كالأسد وكأن زيدا الأسد ، ولا نصيب للألفاظ من حيث هي ألفاظ فيها بوجه من الوجوه ، فأنفس الكلم بم عزل عن الاختصاص والمزية ، فليس للفظ من حيث هو لفظ حسن ومزية ، إذ المزية ليست بمجرد اللفظ وإنما تقع في اللفظ مرتباً على المعاني المرتبة في النفس . ويجعل الإعجاز القرآني في النظم وحده لافي شيء آخر .

وبذلك ينتهي عبد القاهر من عرض نظريته في النظم . هذا العرض الجديد لتلك النظرية الجديدة أيضاً .

وخلاصة ما يقرره عبد القاهر :

- ١ - أنه لافصل بين الكلام ومعناه . ولا بين الصورة والمحتوى .
- ٢ - أن البلاغة في النظم لا في الكلمة مفردة ، ولا في مجرد المعاني .
- ٣ - أن النظم هو توخي معاني النحو وأحكامه وفروقه فيما بين معاني الكلم .
- ٤ - ولذلك أخذ عبد القاهر يعرض لوجوه تركيب الكلام وفق أحكام النحو ، مستنبطاً الفروق بينها ، عارضاً لأسرار المزية والحسن والبلاغة فيها .

وهذه النظرية ، وهي نظرية النظم ، بما اشتملت عليه من تطبيقات واسعة عند عبد القاهر ، لم يعرض لها أحد قبله ، ولذلك جهد عبد القاهر في إيضاحها ، ودفع الشبه عنها ، والرد على من يعترض عبد القاهر فيها ، من أول «دلائل الإعجاز» إلى آخره .

وقد اعتمد عبد القاهر على الذوق الأدبي الخالص اعتماداً كلياً في كل ما يقرره من أحكام ، مقررًا أنه لا يصادف القول في هذا الباب موقعاً من السامع ، ولا يجد

لديه قبولاً ، حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة ، وحتى يكون من تحدّثه نفسه بأن لما يومئ إليه من الحسن واللفظ أصلاً ، وحتى يختلف الحال عند تأمل الكلام فيجد الأريحية تارة ويعرى منها أخرى ، وحتى اذا عجبته عجب واذا نبهته لموضع المزية انتبه .

وقد اثنى عبد القاهر البلاغة العربية والبيان العربى اثراء جليلاً ، فى نقد الأساليب وتحليلها ، وأستنباط الفروق والخصائص فيما بينها ، وبما عرض له من أحكام نقدية دقيقة على أساليب كثيرة من ضروب الشعر والنثر .

ويقول الدكتور بدوى طبانة فى كتابه « البيان العربى » : إن فلسفة عبد القاهر البيانية تنهض على أساس فكرة النظم ، وإن عبد القاهر لم يكن مخترعاً لها وإن كان هو الذى بسط فيها القول ، وأقام على أساسها فلسفة كتابه ، فقد سبقه إليها الواسطى المتكلم (٣٠٧هـ) صاحب كتاب « إعجاز القرآن فى نظمته » وظهرت هذه الفكرة واضحة فى الصراع الذى أثاره امتزاج الثقافات ، وتعصب حملة اليونانية لفلسفة اليونان ، ومنطقهم ودفاع حملة العربية عن تراثهم وثقافتهم ومنها الثقافة النحوية^(١).

ولا نستطيع أن نقول إن رد البلاغة والإعجاز إلى النظم هو الجديد عند عبد القاهر حتى ينفيه صاحب « البيان العربى » ولكن الجديد عنده هو شرحه لنظرية النظم . هذا الشرح الجديد حقاً . وتطبيقه عليها هذه التطبيقات الواسعة ، واذا كان عبد القاهر لم يخرج بالنظم عن معانى النحو ، وكانت فكرة النظم عنده تقوم على معرفة هذا النحو ، وما ينشأ عن الكلمات حين تتغير مواضعها من المعانى المتجددة المختلفة^(٢) . فإن الجديد عنده هو أنه استخدم معانى النحو وأحكامه استخداماً جديداً بيانياً محضاً .. وإلا لكان فى النحو غنى عن كل ما قرره عبد القاهر من أحكام بيانية بلاغية . ويقرر عبد القاهر فى كل فصل من فصول « الدلائل » أن لا سبيل لمعرفة الإعجاز إلا النظر فى الكتاب الذى وضعناه ، واستقصاء التأمل لما أودعناه ، وأنه « الطريق إلى البيان والكشف عن الحجة والبرهان^(٣) » ولا معنى لبقاء المعجزة

(١) ١٦٣ البيان العربى - طبعة ثالثة .

(٢) المرجع السابق نفسه .

(٣) مقدمة دلائل الإعجاز .

بالقرآن إلا الوصف الذى كان له معجزا ، « والطريق إلى العلم به موجود^(١) أى ممكن ويكرر فى الكتاب أنه يقرر أمورا صعبة ، وأنه قد يصعب فهمها ، وغير ذلك مما جعل عبد القاهر يشحذ ذهنه فى تقريرها ، وذهن القارئ والسامع فى تقبلها لوجه الجدة فيها ، وأنه المبتكر لها .

ويعرض الدكتور مندور لقضية النظم عند عبد القاهر فيقرر :

١ - أن الأدب فن لغوى^(٢) كما قرر عبد القاهر من قبل بالفحوى فاخضاع الفكرة أو الإحساس للفظ هو ما يميز الأدب عن غيره من الفنون ، وهذه النظرية الصحيحة هى موضوع اعتزازنا بتفكير عبد القاهر . وعبد القاهر يبدأ بنظرية فلسفية فى اللغة ، ثم ينتهى إلى الذوق الشخصى الذى هو مرجعنا الأخير فى دراسة الأدب .

٢ - النقد وضع مستمر للمشاكل ، فلكل جملة أو بيت مشكلته التى يجب أن نعرف كيف نراها ونضعها ونحكم فيها ، وهذا هو النقد الموضوعى كما رآه عبد القاهر .

٣ - الحكم على النظم هو النظر فى المعنى منظوما والذوق هو الفيصل الأخير فى الحكم على هذه الدقائق ، وإلى هذا فطن عبد القاهر بحسه الأدبى الصادق . ويتحكم الذوق عند عبد القاهر فى نظم المعانى التى تعبر عنها .

٤ - وتسوق فكرة النظم عبد القاهر إلى تخطى الإعراب والجملة البسيطة إلى الجملة المركبة . فعنى بها من حيث الجودة ونقدها نقدا أدبيا .

٥ - إحساس عبد القاهر الأدبى سابق دائما لعقله .

٦ - اهتمدى عبد القاهر إلى كل تلك الحقائق - التى وإن يكن فى تفكير اليونان القدماء ما يمشاها ، كما أن فى علم اللسان الحديث ما يؤيدها - فالفضل الأكبر فى الوقوع عليها لمواهب عبد القاهر الفطرية .

٧ - ليس لنظرية عبد القاهر فى النظم من القيمة ما لتطبيقاته . فهناك يظهر ذوقه

(١) ٨ الدلائل .

(٢) فى الميزان الجديد لمندور الطبعة الثانية .

العربى السليم ، ذلك الذوق الذى لا يمكن أن يغنى عنه فى الأدب شىء ، وما
نظرية عبد القاهر فى رمزية اللغة ورد المعانى إلى النظم وما منهجه فى نقد
النصوص نقدا موضوعيا إلا مراحل تنتهى به إلى الذوق الذى يدرك الدقائق ويحس
بما تحيط به المعرفة ولا تؤديه الصفة » .

هذا وقد أطلق السكاكى (٦٢٦هـ) صاحب المفتاح على أصول النظم وأبوابه
ومسائله علم المعانى « وأخذ قواعده » كما أخذ فروعه من كتاب دلائل الإعجاز .



ومصادر فكر عبد القاهر البلاغى عديدة :

فلقد تأثر عبد القاهر فى كتابيه .. الأسرار والدلائل . بكثير من علماء البلاغة والبيان قبله :

١ - فقد أفاد من « المبرد » ودراساته فى الكامل كثيرا ، واقتبس منه آراء فى البلاغة ، كما أخذ عنه شواهد كثيرة ، واستدل بآرائه فى الدلائل .

٢ - وفكرة قرب الشبه فى الاستعارة موجودة فى نقد الشعر لقدامة . أخذها عن القدماء ، وسار عليها العسكرى والآمدى وصاحب الوساطة ، وتبعهم عبد القاهر فى الأسرار والدلائل .

وقد أورد عبد القاهر رأى قدامة فى أن « أعذب الشعر أكذبه ، وحلله وشرحه » .

وعرف عبد القاهر الكناية بنفس تعريف قدامة .

يظهر فى الأسرار والدلائل أثر بلاغة أرسطو المترجمة فى كتابى الخطابة والشعر اللذين ترجمهما ابن سينا فى الشفاء وترجمهما غيره ، وقد اقتبس عبد القاهر من هذه الترجمات وتأثر بها :

(أ) فقد أخذ منها ما كتب فى بلاغة التجنيس ، من أنه وقد أعاد اللفظة يخدعك . عن الفائدة وقد أعطاهما .

(ب) واخذ فكرة أن الاستعارة قد تكون استعارة من التشبيه وقد تكون من الضد .

(ج) وبناء الشعر على التخيل الذى بسطه عبد القاهر نظرية لارسطو فى كتابه الشعر .

(د) وقرب الشبه فى الاستعارة أول من تكلم عنه أرسطو فى كتاب الخطابة ، وقد بسط عبد القاهر الكلام فيه ، كما تكلم عليه قبله الكثيرون .

وللآمدى أثر فيما كتبه عبد القاهر :

فقد نقل عبد القاهر كلمة للآمدى فى بيتين للطائيين ، واستدل بها فى أسرار البلاغة على ما أراد ، ثم نقدها فى دلائل الإعجاز . وكذلك نقل كلمة عن معنى الاستعارة عند الآمدى .

ونهج عبد القاهر نهج الآمدى فى تعليقه على كثير من الأبيات فى الاستعارة . كأبيات لبید وزهير وأبى ذؤيب فى الاستعارة المكنية وسواهم . ويخص عبد القاهر النظم بمزية البلاغة ، كما ذهب إليه الآمدى ومن قبله الجاحظ .

عبد القاهر والقاضى الجرجانى :

نشأ الرجلان فى جرجان ، وعاش أولهما فى القرن الرابع (توفى سنة ٣٩٢هـ) ، والثانى فى القرن الخامس (توفى عام ٤٧١) وكانت نشأة عبد القاهر فى جرجان موطن القاضى الجرجانى ، وتأثره بيئاتها ، وثقافته على أساتذتها وقراءته فى مؤلفات علمائها ، واتجاهه إلى الثقافة الدينية والأدبية التى اتجه إليها القاضى ، وتأثره بها ، واستعداده من معينها .

ويتجلى أثر الوساطة بوضوح فى كتابى عبد القاهر : الدلائل والأسرار ، فكثيرا ما يقتبس من آرائهما . أو يأخذها قضية مسلمة يبنى عليها ويستدل بها .

فكلام عبد القاهر فى المعانى « وزيادة شاعر على آخر فيها » وكذلك حديثه عن السرقة ومظاهرها وما تقع فيه من المعانى ، إلى غير ذلك مما نراه فى الدلائل وفى الأسرار ، كل ذلك قد تأثر فيه عبد القاهر بالقاضى ... والاتفاق فى الغرض ، وعموم الدلالة لا يعد سرقة عند عبد القاهر ، وقد أفاض فى ذلك من قبل القاضى الجرجانى ، وعاب ابن يموت . فى رمية أبى نواس بالسرقة فيما اتفق هو وغيره فيه فى عموم الدلالة .

والاستعارة . وتقريب الشبه فيها . فكرة ذكرها عبد القاهر . كما ذكرها الجرجانى وفى الحق أن قدامة قد ألم بها فى نقد الشعر متأثرا بخطابة أرسطو فيها ... ونقل عبد القاهر نفس تعريف القاضى للاستعارة ، مما نراه فى الوساطة .

ونقل عنه عبد القاهر نقده لبيت ابن المعتز :

بياض في جوانبه احمرار كما احمرت من الخجل الحدود
وسلمه له .

وأثر التعقيد اللفظي في النفس أفاض في الحديث عنه القاضي ، وكتب فيه عبد القاهر متأثراً كل التأثر به . وقد سبقهما الجاحظ إلى الحديث عنه في بيانه ، وألم به الآمدى الماما في موازنه ... ورأى عبد القاهر في أتي تمام والنعي عليه لإغرابه هو رأى القاضي ، وكذلك رأيه في البحترى والاشادة بطبعه ، وعلى العموم فتأثر عبد القاهر فيما كتبه عن التعقيد بما كتبه القاضي من قبل عنه في وساطته واضح بين . واستدل عبد القاهر على أن أسلوب زيد الأسد . والأرجح فيه أن يكون تشبيها برأى القاضي .

كما ينقل عنه في مواضع كثيرة أخرى في كتابيه الأسرار والدلائل :
نقل عنه أن بيت أبي نواس : « خليت والحسن تأخذه الخ » مأخوذ من بيت
بشار :

خلفت على مافي غير مخير هو أى ولو خيرت كنت المهذبا
وتكلم القاضي عن سر القطع في بيت المتنبي : « جللا كما بي فليك التبرج الخ ،
ولعل . عبد القاهر سار على طريقته في بيان بعض أسرار الفصل . وباب الفصل
والوصل أصل تسميته موجود ، في كتاب الجاحظ حيث يقول : البلاغة عند الفارسي
هي معرفة الفصل من الوصل ، وقد نقل عبد القاهر هذه الكلمة في الدلائل .

وقد تأثر عبد القاهر بصاحب الصناعتين أبي هلال العسكري :
فقد نقل عنه كلمته التي ذكر فيها مناقشة البحترى لابن الرومي في بيت أبي
نواس :

ولم أدر من هم غير ما شهدت لهم بشرق ساباط الديار البساس
وأنه مأخوذ من بيت لأبي خراش الهزلى ... ونقل عنه كثيرا غير ذلك .

ونقد رأى أبى أحمد العسكرى - وهو من أسرة صاحب الصناعتين - فى تسميته التمثيل بالمماثلة .

وقد أخذ عبد القاهر بعض آرائه عن علماء النحو .

(أ) نقل كثيرا عن سيبويه :

١ - فقد نقل عنه سحر بلاغة التقديم .

٢ - وإن تقديم الاسم فى مثل محمد قام يفيد التنبيه .

٣ - ونقل بعض شواهد من الكتاب لسيبويه فى باب الحذف .

٤ - وأستدل بكلام سيبويه على أن « إنما » تجيء لخبر لا يجمله المخاطب .

وسوى ذلك مما تأثر عبد القاهر فيه بآراء سيبويه فى النظم وروعه .

(ب) ونقل عبد القاهر عن أبى على الفارسي كثيرا مثل :

١ - أن إنما بمعنى ما والا .

٢ - وأن مثل « كراى كراكا » يجعل الأولى خيرا .

(ج) وتأثر عبد القاهر بالسيرافى فى دفاعه ضد رأى القائل بأنه لا جدوى من التوسع فى دراسة علوم العربية ، ومناقشة السيرافى لمتى^(١) فى ذلك مشهورة .

وعلى العموم فقد أفاد عبد القاهر عن سيبويه فى دراساته لخصائص النظم ، وهذا ماحدا بالشيخ أحمد المراغى إلى عد سيبويه أول واضع لعلوم البلاغة .

(د) ونقل عبد القاهر عن المرزبانى صاحب المشرح أمثلة أخذ فيها الشاعر معنى من آخر . وصاغه صياغة حسنة فأستبد به .

وروى عنه شعرا لطيفيل تمثل به أبو بكر .

ونقل عنه كلمة أبى نواس فى بيته « تنأى الطير غدوته » وسبق النابغة للمعنى .

ونقل عنه جملة فى تمثل ابن الخطاب بالشعر .

(هـ) نقل عبد القاهر عن ابن قتيبة كلمة له بدون أن يشير إليه . وهى أن « من الشعر

(١) الامتناع والمؤانسة للتوحيدي ، معجم الأدباء ج ٨ فى ترجمة السيرافى - ٢٢٥ - ٢٢٧ الأسرار .

ماحسن لفظه ومعناه ، ومنه ما حسن لفظه فقط ، أو معناه فقط ، وهى فى مقدمة الشعر والشعراء لابن قتيبة .

تأثر عبد القاهر بالجاحظ كثيرا جدا فى كتابيه الأسرار والدلائل :

- ١ - فما كتبه عبد القاهر عن البيان يتجلى فيه روح الجاحظ .
 - ٢ - وذكر أخذنا من الجاحظ أنواع الدلالات على المعانى .. الإشارة والخط والعقد واللفظ .
 - ٣ - وفضيلة الكلام لنظمه لا للفظه هو روح كلام الجاحظ .
 - ٤ - ولا يقبل من السجع إلا ما طلبه المعنى والطبع . بدون تكلف واستكراه ، وهى فكرة استمدتها عبد القاهر من الجاحظ .
 - ٥ - وجمال اللفظ ومزيته فى أن يكون مألوفا متداولاً . ليس وحشيا ولا سوقيا ، هذا الكلام هو روح كلام الجاحظ .
 - ٦ - ويحمد « من الكلام ما كان معناه إلى قلبك أسرع من لفظه إلى سمعك » وهو كلام الجاحظ ، أخذه عبد القاهر عنه .
 - ٧ - وتعريف عبد القاهر للبلاغة ، هو روح كلام الجاحظ .
 - ٨ - ونقل مقدمة الجاحظ للحيوان « جنبك الله الشبهة إن تلخ » .
- ونقل عنه كلمة فى إعجاز القرآن ، وكلمة فى اختيار رواة الأخبار للبليغ من الكلام . ونقل عنه كلمة فى أن التصريح أبلغ فى النفس ، ونقل عنه رأيه فى النعى على من يقدم الشعر لمعناه .
- ونقل عنه كلمة « من أضر ما يقال : « لم يدع الأول للآخر شيئا » .
- ونقل عنه كلامه عن المتعربين ، ورسالة الجاحظ إلى ابن الزيات .
- بل أن كثيرا من مثل عبد القاهر وشواهد مأخوذة من البيان والتبيين ، وذلك ظاهر جلى لا داعى لذكره .

بين عبد القاهر وابن سنان :

عاصر ابن سنان الخفاجى (٤٦٦هـ) شيخ البلاغة والبيان عبد القاهر الجرجانى (٤٧١هـ) كما عاصر ابن رشيق صاحب العمدة (المتوفى سنة ٤٥٦هـ) .

ويغلب على الظن أن بعد مواطن هذه الشخصيات الفذة عن بعض كان سببا فى عدم تأثر كل شخصية منها بالأخرى فى تفكيرها فى النقد وأحكام البلاغة .

فعبد القاهر عاش فى جرجان ، والخفاجى فى حلب ، وابن رشيق فى القيروان . وألف الأول أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز ، من حيث ألف الثانى كتابه « سر الفصاحة » ، وألف الثالث كتاب « العمدة فى صناعة الشعر ونقده » .

فأما الصلة الباقية بين ابن رشيق وابن سنان . فصدرها اعتماد الرجلين فى تأليفهما على مصدر واحد . له أهمية وهو نقد الشعر ، فكان كتاب . العمدة وكان كتاب سر الفصاحة . تجديدا يسير حول منهج قدامة فى النقد .

وللآن لا تتجلى صلة واضحة بين الخفاجى والجرجانى ، ولا يظهر أى أثر للشبه أو التأثير بين الرجلين ، اللهم إلا فى مواضع قليلة :

فقد ذكر ابن سنان - كما ذكر عبد القاهر - شبهة الذين زعموا أن الحكاية هى المحكى ، ودليلهم عليها . أن الحكاية لو كانت غير المحكى بل مثله لكان من قرأ القرآن آتيا بمثله على الحقيقة ، وأجاب الخفاجى عن هذه الشبهة كما أجاب عبد القاهر فى دلائله . بأن التحدى إنما وقع بفعل مثل القرآن . على الابتداء دون الاحتذاء ، والتالى للقرآن قد أتى بمثله محتذيا . فلا يكون بذلك معارضا ، وعلى هذا أيضا كان يقع التحدى بين العرب بالشعر على سبيل الابتداء .

ونرى أن ذلك مصدره هو التشابه بين الثقافة العامة فى عصر الرجلين لاغير .

وعلى ذلك فلم يتأثر الخفاجى بالجرجانى ولم يتأثر الجرجانى بالخفاجى ولو أن الرجلين أطلع أحدهما على مجهود الآخر فى دراسة البلاغة . لكان لذلك أثره الخطير فى تحويل مناهج البحث البلاغى .

ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى أن مؤلف الخفاجي أعمق تفكيراً وأشمل فكرة وأوسع مدى وأبلغ بياناً . من كتابي الجرجاني : الأسرار والدلائل .

ويذهب باحث إلى خلاف هذا الرأي فيقول في ذلك ما نصه^(١) :

وبعد فإنه لم يكن التأليف في البلاغة قبل عبد القاهر قد استقل بالأبحاث البلاغية . وتخلص مما يشوبه من مواضع أخرى أدبية أو نحوية أو غير ذلك ، فكننت تجذ الكتاب بحوى مسائل ليست من صميم العلم في شيء ، وتجده غير منظم التنظيم الذي استحدث فيما بعد ، وكتاب سر الفصاحة من هذا النوع ، يذكر مسائل من صميم المعاني فيما هو من مباحث البيان ، ويقحم المسائل البديعية في غيرها مما هي من موضوع البيان والمعاني ، ويضيف إلى ذلك نقولاً أدبية ، وبحوثاً هي إلى الأدب أقرب منها إلى غيره ، فنراه يتكلم عن المفاضلة بين شعر المتقدمين والمتأخرين ، ويوازن بين المنظوم والمثثور ، ويذكر الكميّة والطرمّاح وابن حكيم وعدم احتجاجهم بشعرهما ، ويتحدث عن عيب النقاد على جرير والفرزدق طول مقامهما في الحضرة إلى غير ذلك وهذا هو الطابع العام لكتاب « سر الفصاحة » وهو وإن كان متأثراً بطريقة عصره ومذهب السابقين عليه . إلا أننا حين نوازن بينه وبين عبد القاهر ، وكلاهما معاصر لصاحبه . يعيش معه في بيئته واحدة ، وتظلهما ثقافة واحدة أو متقاربة ، نجد الثاني سبق الأول بأشواط بعيدة في هذا المضمار ، وذلك أن الجرجاني قد استوفى أبحاثاً بلاغية في كتابه . مما خلا سر الفصاحة منها . كاللجّاز المرسل والمجاز العقلي والفصل والوصل والخبر والانشاء . إلى غير ذلك مما لم يتحدث ابن سنان عنه ، وظهرت في كتب عبد القاهر ميزات لم يتمتع بها سر « الفصاحة » ، من تخلص العلم من الأمور الأجنبية عنه ، ومن قرّبه إلى التحديد العلمي والتنسيق المنظم . والاستيفاء الشامل ، ولكن لعل من الإنصاف أن نلتمس للخفاجي في ذلك عذراً ، فقد كان والياً ، ونحن وإن كنا لم نعرف مدة ولايته . إلا أنها على أي حال قد شغلت نفسه كثيراً . وقد كان الخفاجي شاعراً ، وللشاعر نزعة هي وحي الإلهام وسنوح الخاطر .

(١) من بحث نشره د . كامل الفقي في مجلة الأزهر عن ابن سنان عام ١٩٤٨ .

وبعد : فإذا كان ابن المعتز قد ألف كتابه البديع ، وقدامة ألف نقد الشعر ، وأبو هلال قد ألف الصناعتين وابن رشيق قد ألف « العمدة » ، فحسبنا أن نذكر ابن سنان ومؤلفه القيم (سر الفصاحة) ، فإنه حلقة بين هذه الكتب . وبين كتب عبد القاهر والسكاكي ومدرسته ، فابن سنان كان كعبد القاهر : كلاهما بنى للبلاغة العربية صرحا شاهقا تعزز به وتفتخر ، وكلاهما أقام بحوث البلاغة على نهج جديد كان أساسا لبحوث البلاغيين من بعد .

وإذا كانت الفكرة الأولى عند عبد القاهر حين ألف في البلاغة هي الوصول إلى أسرار إعجاز القرآن الكريم وحقيقته ، فإنها كذلك هي الفكرة التي كانت تسيطر على عقل ابن سنان وتفكيره ، كلا الرجلين ابتدأ بقضية الإعجاز ، وخرج منها صفر اليبدين ، لم يهتد إلى أمنيته المنشودة ، ولكن ابن سنان يرى أن سر الإعجاز هو صرف الله الناس عن الاتيان بمثل القرآن الكريم ، وعبد القاهر يرى أن سره . هو دقائق ولطائف في نظم القرآن الكريم . أعجزت القائلين ، وأسكتت صوت الملحددين ، أو قل . إن سر الإعجاز الدفين عنده هو بلاغة القرآن الكريم بكل ما تحتوى عليه هذه الكلمات من معان .

هذا . وقد تأثر السكاكي ومدرسته بعبد القاهر وآرائه البينانية إلى حد بعيد ، ويتجلى ذلك في « مفتاح العلوم » للسكاكي وفي « الإيضاح » للقزويني وفي سائر كتبهم . وذلك واضح لا يحتاج إلى بيان .

ولم يشر ابن الأثير صاحب المثل السائر ٦٣٧هـ إلى عبد القاهر ولكن نقل عنه جملا في الحذف وسار على أن السجع لا بد أن يكون اللفظ فيه تابعا للمعنى كما فعل عبد القاهر .



الفصل السابع

أنماط الأسلوبية في أسرار البلاغة





ويكاد يكون « أسرار البلاغة » اذا استثنينا مقدمته - خاصا بأنواع المجاز والتشبيه ، من المجاز اللغوى والعقلى ، والتشبيه والتمثيل وما تحت ذلك من فروع وأقسام . وهذه كلها جوانب كبيرة الأهمية من جوانب الإعجاز .

أما المقدمة فكانت مناهضة وإبطالا لما يدعى للفظ مفردا من حسن ومزية ، واستدلالا ، على ان الفضل والنبيل ، والمزية والحسن ، اذا نسبت فإنما تنتسب إلى التأليف والنظم ، وإلى مايجىء عن التصرف فيه من أغراض ومعان جمّة ، وإلى استعارة وقعت موقعها . وأصابت غرضها ، وإلى ترتيب يتكامل من البيان . وتمثيل يخرج الخفى إلى العيان ، وان اللفظ مفرد لا يستقل بشيء من الحسن سوى ان يكون معروفا مألوفا ، وخفيفا على اللسان سهلا ، لا وحشيا غريبا ولا عاميا سخيفا ، وما سوى ذلك مما يتوهم ان الحسن فيه عائد إلى اللفظ ، كالجناس والحشو ، والاستعارة والتطبيق ، وسائر أنواع البديع ، فالحسن فيه من قبيل المعنى لا اللفظ ، هكذا سلك الشيخ فى مقدمة الأسرار ثم ختمها بتطبيق بارع فى أبيات الرائع من الحج :

« ولما قضينا من منى كل حاجة .. »^(١)

فأما المقصد فقد مهد له بقوله : « واعلم ان غرضى بهذا الكلام الذى ابتدأته والأساس الذى وضعته ، ان اتوصل إلى بيان امر المعانى ، كيف تتفق وتختلف ، ومن اين تجتمع وتفترق ، وأفضل أجناسها وأنواعها ، واتبع خاصها ومشاعها ، وأبين احوالها فى كرم منصبها من العقل ، وتمكنها فى نصابه ، وقرب رحمتها منه ، أو بعدها حين تنتسب عنه ... وان من الكلام ماهو كما هو شريف فى جوهره كالذهب الإبريز ، الذى تختلف عليه الصور ، وتتعاقد عليه الصناعات وجل المعول فى شرفه على ذاته ، وان كان التصوير قد يزيد فى قيمته ، ويرفع فى قدره ، ومنه ماهو كالمصنوعات العجيبة من مواد غير شريفة مادامت الصورة محفوظة عليها لم تنتقض ، وأثر الصنعة باقيا معها ليبطل قيمة تغلو ، ومنزلة تغلو وللرغبة إليها انصباب ، وللنفس بها إعجاب حتى اذا خانت الأيام فلها أصحابها وضامت الحادثات أربابها وفجعتهم فيها بما يسلب حسننها المكتسب ، بالصنعة ، وجمالها المستفاد من طريق

(١) ص ٢- ١٩ أسرار البلاغة .

العرض ، فلم يبق الا المادة العارية من التصوير ، سقطت قيمتها ، وانحطت رتبته .
 « وأول ذلك وأولاه ، وأحقه بأن يستوفيه النظر ويتقصاه ، القول على التشبيه
 والتمثيل والاستعارة ، فإن هذه أصول كثيرة ، كان محاسن الكلام - ان لم تقل
 كلها - متفرعة عنها وراجعة إليها ، كأنها أقطاب تدور عليها في متصرفاتها ، وانظار
 تحيط بها من جهاتها^(١) » .

ونقول إن الشيخ مبتكر كل الابتكار في جل ما عرض له من الاستعارة وأقسامها
 والتشبيه وصوره والتمثيل ومواقعه ، إذ لم يعرف السابقون عليه تقسيم المجاز إلى مجاز
 في الكلمة ، ومجاز في التراكيب ، وأن الأول لغوى ، والثاني عقلى ، وأن اللغوى
 منه ما بنى على التشبيه ، وهو الاستعارة ، ومنه ما بنى على مناسبة أخرى غير
 التشبيه ، كاستعمال اليد في النعمة ، والعين في الريئة ، ولا ان الاستعارة تجيء مرة
 في الاسم ، ومرة في الفعل وأن الأخيرة تجيء في المصدر أولا ، ثم في الفعل ثانيا : ولا
 أن من الاستعارة ما يكون تارة بأن تجعل الشيء الشيء وليس هو (التصريحية)
 كاستعمال الأسد في الشجاع وما يكون آخر بأن تجعل للشيء والشيء وليس له
 (المكنية) كما جعل لبيد للشمال يدا ، في قوله : « إذ اصبحت بيد الشمال زمامها » ،
 وهكذا من كل ما اهتدى إليه ، من ضروب الاستعارة وما إليها . فهو مبتدع في
 هذا النهج والتنوع . مبتكر في هذا البيان والتفصيل .

ولانعدو الحقيقة كثيرا . اذا قلنا إن المتأخرين لم يزيّدوا هنا أيضا على عبد القاهر
 شيئا ذا قيمة ، يمكن أن يعول عليها في فن البديع ، لان زيادتهم كانت خلافا في
 تحديد هذه الأنواع التي ابتكرها . كخلافهم في معنى الكناية ، والاستعارة بالكناية
 والمجاز العقلي ، كما كانت اسرافا في تقسيمات لاطائل تحتها . وحشدا لأبحاث فلسفية
 ومنطقية لا مبرر لها . وكم كان طريقا قول صاحب المطول في تعليقه على صنع السكاكي
 في هذا الإسراف في باب التشبيه ، اذ قال : « وأعلم أن أمثال هذه التقسيمات التي
 لا تنفرع على اقسامها أحكام متفاوتة قليلة الجدوى . وكان هذا ابتهاجا من السكاكي
 باطلاعه على اصطلاحات المتكلمين . فله در الإمام عبد القاهر . واحاطته بأسرار

(١) ص ١٩ ، ٢٠ الأسرار .

كلام العرب ، وخواص تراكيب البلغاء . فإنه لم يزد في هذا المقام على التكرير من أمثلة انواع التشبيهات وتحقيق اللطائف المودعة فيها^(١) .

وصدق السعد فإن الإمام كما قال . كان محيطاً بأسرار كلام العرب ، وخواص تراكيب البلغاء ، فلم يعن إلا بكشف لطائفها وتحقيق بدائعها ، لافي التشبيه فحسب بل في كل ماعرض له من فنون البلاغة من نظم وبديع ، ولم يعن بالتقسيم إلا حيث يجب التقسيم ، حين تختلف صور المعنى ، وتفتن مذاهب الكلام ، ويكون لكل قسم طابعه الخاص في الحسن ووجهته ومداخله في التأثير . وبذلك تتفاوت الأحكام وتتفاضل الأقسام ، ويعرف المنشئ كيف يصور ويعبر ، ويرى الناقد كيف يزن ويقدر . وينظر كيف دخل الشاعر إلى المعنى وكيف خرج ، وكيف تطف واحتال حتى جاء بالسحر الحلال .

هكذا كان - رحمه الله - في دراسته وبجته . فكان عند قوله في المقصد ، يتبع صور المعاني خاصها ومشاعها . وكيف تفرق وتجتمع وتنفق وتختلف ، ولم يتبع كما ابتهج السكاكي باطلاعه على اصطلاحات المتكلمين ، فيقسم الأشياء إلى مسموم ومطعوم ومرئى ومسموع .



(١) اسرار البلاغة ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، والمطول بحاشية - السيد ص ٣١٩ .



الفصل الثامن

التحليل الأسلوبى للبديع البلاغى





كلمة « بديع » كانت تطلق على كل ما فيه طرافة وجمال ، ونقول هنا إن ابن المعتز قد خص بهذا الاسم خمسة أنواع من سبعة عشر ، ذكرها في كتابه « البديع » وهي الاستعارة والتجنيس والطباق ، والمذهب الكلامي ورد العجز على الصدر . وسمى ما سواها « محاسن » إلا أنه لم يعلل سر هذا التخصيص ، ولعله رأى فيها نوعا من الحسن لم يره في غيرها ، وهو مع ذلك لم يصير على هذا الاصطلاح ، بل ترك للمعاند - على حد تعبيره - ان يسمى ما شاء من المحاسن بديعا ، ومن البديع محاسنا . أما أبو هلال فإنه لم يفرق بين « البديع » و « المحاسن » فسمى كتابه الذي ألفه في فنون البديع « محاسن النظم والنثر^(١) » ، ثم ذكر في أوله أن هذه الأنواع التي ذكرها هي التي سماها المحدثون « البديع » وأخيرا لم يرتض أحد من النقاد اصطلاح ابن المعتز ، بل شاع في اطلاقهم وعرفهم لفظ « البديع » علما على انواعه جميعا . على قصرها فنونا من الحسن ، واصنافا من البديع ، ثم فيها من الأحكام والمتانة والقوة ماتراة ولكنني ما اظنك تجد له من صورة الطرب ، وارتياح النفس ، ما تجده لقول بعض الأعراب :

أقول لصاحبي والعين تهوى	بنايين المنيفة فانصهار
تمتع من شميم عرار نجد	فما بعد العشية من عرار
ألا يا حبذا نفحات نجد	وريا روضه غب القطار
وعيشك اذ يحل القوم نجدا	وأنت على زمانك غير زارى
شهور ينقضين وما شعرنا	بأنصاف لهن ولا سرار
فاما ليلهن فخير ليل	وأقصر مايكون من النهار

فهو كما تراه بعيد عن الصنعة ، فارغ الألفاظ ، سهل المأخذ ، قريب التناول ، وكانت العرب انما تفاضل بين الشعراء في الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته ، وتسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب ، وشبه فقارب ، ومدد فأغزر ، ولمن كثرت سوائر أمثاله ، وشوارد ابياته . ولم تكن تعباً بالتجنيس والمطابقة ، ولا تحفل بالإبداع والاستعارة ، اذا ما حمل لها عمود الشعر ، ونظام

(١) هذا الكتاب هو المطبوع الآن في كتاب الصناعتين تحت عنوان « الباب التاسع في شرح أنواع البديع ص ٢٠٤ .

القراضين ، وقد كان يقع ذلك في خلال قصائدها ، ويتفق لها في البيت بعد البيت ، على غير تعمد وقصد ، فلما افضى الشعر إلى المحدثين ورأوا مواقع تلك الأبيات من الغرابة والحسن ، وتميزها عن اخواتها في الرشاقة واللفظ ، تكلفوا الاحتذاء عليها ، فسموه « البديع » فمن محسن ومسيء ، ومحمود ومذموم ، ومقتصد ومفرط ، فإذا جاءتك الاستعارة كقول زهير :

وعرى أفراس الصبا ورواحله

وقول لبيد :

إذ أصبحت بيد الشمال زمامها

وقول الحارث بن حلزة :

حق اذا التفع الطباء بأطـ راف الظلال وقلن في الكنس

وقول ابن الطبرية :

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق الحلى الأباطح

وقول ابى نواس :

« أعطتك ريحانها العقار..... الخ

فقد جاءك الحسن والإحسان ، وقد أصبت ما أردت من إحكام الصنعة ، وعذوبة اللفظ ، فاذا سمعت بقول أبى تمام :

باشرت أسباب الغنى بمدائح ضربت بأبواب الملوك طبولا

وبقوله :

يادهر قوم من أخدعك فقد أضججت هذا الأنام من خرقك

فاسدد مسامعك ، واستغش ثيابك ، وإياك والإصغاء إليه ، واحذر الالتفات نحوه ، فإنه مما يصدىء القلب ويمجه ، ويطمس البصيرة ، ويكدر القريحة .

وربما جاء من هذا الباب ما يظنه الناس استعارة وهو تشبيه أو مثل ، فقد رأيت

بعض أهل الادب ذكرا أنواعا من الاستعارة عد فيها قول ابى نواس :

والحب ظهر أنت راكبـه فإذا صرفت عنانه انصرفا

ولست ارى هذا وشبهه استعارة ، وإنما معنى البيت أن الحب مثل ظهر أو الحب كظهر أنت تديره كيف شئت اذا ملكت عنانه ، فهو إما ضرب مثل أو تشبيه شئء بشئء ، وإنما الاستعارة لما اكتفى فيها بالاسم المستعار عن الأصل ، ونقلت العبارة فجعلت فى مكان غيرها . وملاكها : تقريب الشبه ، ومناسبة المستعار له للمستعار منه ، وامتزاج اللفظ بالمعنى ، حتى لا يوجد بينهما منافرة ، ولا يتبين فى احدهما اعراض عن الآخر . (١)

ويعنينا من هذا الكلام أمران :

١ - إنه فضل شعر الأعرابى المطبوع على شعر ابى تمام المصنوع ، مع إعجابه بصنعه وحسنه ، ومتانته وإحكامه ، ذاك لأن الكلفة بادية عليه ، وملاك الامر - كما قال فى موضع آخر - ترك التلکف ، ورفض التعمق ، والاسترسال مع الطبع . فإذا جاء البديع عفوا ، واستجاب سهلا ، كالذى رأيت فى شعر زهير واضرا به ، فهو الحسن والإحسان ، والا فاسدد دونه مسامعك واستغش ثيابك .

وقد اغفل عبد القاهر كثيرا من الفنون البديعية التى عنى بها السابقون قبله ، فلم يعرض لها ولم يشر إليها ، فى حين أنه خص جانبها منها بالبحث الواسع والتفصيل الدقيق ، وكرر الحديث عنه مرات فى الدلائل والأسرار ، كالاستعارة والتمثيل ، والمجاز والكناية ، فهل لذلك من سر ؟ ؟

نعم إن لذلك لأسرارا :

فقد كان الشيخ فى كتابيه يبحث عن البلاغة العالية ، والبيان الساحر ، وعن الصنعة الفاخرة ، والنظم البارع ، وأين يكون الحسن والإحسان ، والإبداع والافتنان ، وما خصائص الجودة ، ومظاهر البراعة ؟ أو بعبارة اخرى ، كان يبحث عن « دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة » ومن رام مثل هذا المطلب كان بمنأى عن

(١) الوساطة ص ٣٧ - ٤٣ .

الجمع والاستقصاء ، وأبى عليه كبرهمه ان يحشد ما يوزن وما لا يوزن في معرض ، وأن يجمع الغالى والرخيص في قرن . وما من شك في ان فنون البديع متفاوتة أبعد تفاوت وأن منها ما يغلو ثمنه ويعز مطلبه ، ومنها ما هو دون ذلك على مسافات وأميال . والفارق بين ظاهر بين الاستعارة والتثليل مثلا وبين العكس ورد الأعجاز على الصدور ، والإرصاد .

تلك وجهة ، وهناك ثانية هي ان الشيخ لم يغفل ما أغفل لنزوله عن مستوى نظرته في البلاغة فحسب ، بل كان إلى جانب ذلك اعتماده على ما كتب السابقون فيه ، فقد رأهم استقصوا ماترك ، ووفوه حقه من البحث والبيان . فلم ير حاجة إلى التكرار والإعادة .

ومع هذه وتلك ثالثة ، وإن ما ذكره الشيخ من ذلك في كتابيه إنما كان وثيق الصلة بقضية اللفظ والمعنى ، فكان من الحتم ان يجره الحديث عن هذه القضية إلى الحديث عن هذه الأنواع ، وأن يبين الأمر فيها لاشتهارها وقوة اتصالها بتلك القضية . فقد وجد دعاة اللفظ يقولون : إن حسن الاستعارة والجناس واكثر فنون البديع ، راجع إلى اللفظ وحده ، وقد رأينا فيما سبق كيف زيف الشيخ هذا الزعم ، ورد اكثر الحسن في الاستعارة التي ما يعود عليها من جهة النظم ، وانه يهين لوقعها ، ويمهد للطفها وغرابتها^(١) .

وكان القاضى وأبو هلال والآمدى ينظرون إلى البديع نظرا ادبيا خالصا ، يستحسنون منه ما وافق الطبع ، وحرك الأريحية ، ويزرون على المتكلف المجتلب ، فلم يبلغ بهم العمق إلى ان يقولوا : هذا حسن لفظي ، وذاك معنوي . فلما تبدلت الأمور ، وتغيرت البيئة ، واحترف الأدب كثير من ادعياء الأدب ، قامت في رعوسهم أوهام ، وشاعت في السنتهم نظريات ، وتعصب فريق للفظ ينحله الفضل كله ، واخر للمعنى يعطيه الشرف والمنقبة ، فاقتحم الشيخ عليهم الباب وامطرهم من قلمه بيانا عجبا ، وطارد الشبه انى جاءت ، وحارب الأوهام كيف كانت ، حتى نصر الحق ، وأقام الحجة ورفع النار .

(١) ص ٧٤ من الرسالة .

بل لقد تأثر الخفاجي - وهو الأديب الناقد الشاعر - إلى حد ما بهذه النظريات في كتابه « سر الفصاحة » فسلكت فيه مسلكا يدل على مقدار احترامه لها واهتمامه بها . فجعل الفصاحة من حظ اللفظ وحده ، والبلاغة من حظ اللفظ والمعنى معا^(١) ، وقسم فصاحة اللفظ إلى فصاحة في المفرد ، وفصاحة في التركيب^(٢) . ثم قسم بلاغة الكلام إلى ما يخص المعاني مفردة^(٣) وما يعم المعاني والألفاظ مشتركة^(٤) ، فكان مما ذكره من شروط الفصاحة : المناسبة بين الألفاظ « وقد قسم هذه المناسبة قسمين : مناسبة عن طريق الصيغة ، وأخرى من طريق المعنى . وجعل من القسم الأول : السجع والازدواج والجناس والترصيع^(٥) ، كما جعل من الثاني : الطباق والمقابلة والسلب والایجاب والعكس^(٦) .

إلا أن الخفاجي كان يتدارك - إلى حد ما - ظاهر ما يوهمه هذا التقسيم والتحديد من استثناء اللفظ بما استقل به من غير شرك للمعنى فيه ، أو عكس ذلك من استثناء المعنى بدون اللفظ . فنص على ان المناسبة التي هي من طريق الصيغة كالجناس والسجع وما إليها ، لا بد أن ينصرها المعنى ويؤيدها فقال في السجع ، بعد أن حكى الخلاف فيه :

« والمذهب الصحيح أن السجع محمود اذا وقع سهلا متيسرا بلا كلفة ولا مشقة . وبحيث يظهر أنه لم يقصد في نفسه . ولا احضره الا صدق معناه ، دون موافقة لفظة^(٧) » .

أما عبد الباقهر فان نظره العالی ، وذوقه الرفیع ، لم يقف من البديع عند هذا الحد ، ولم يقنع منه بأن يجيء مطبوعا فحسب ، بل رأى أن لا بد ان يكون له وراء

(١) سر الفصاحة ص ٥٥ .

(٢) ص ٦٠ ، ٨٥ .

(٣) ص ٢٢٣ .

(٤) ص ١٠٣ .

(٥) ص ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٨١ ، ١٨٣ .

(٦) ص ١٨٨ ، ١٩٢ .

(٧) ص ١٦٣ .

ذلك نكتة تطلب ، وعائدة على المعنى تراد وتقصد ، ترفع من شأنه وتفخم من قدره ، ويقترن حظه من الفضل بحظها ويحییء حسنه من حسنھا ، وإلا كان حمل اللفظ على البديع منقصة وشينا ، وصار اعفاؤه ، منه فضلا وحسنا .

قال فی مقدمة أسرار البلاغة ، وهو يتحدث عن اللفظ والمعنى : « وههنا اقسام قد يتوهم فی بدء الفكرة وقبل اتمام العبرة ، ان الحسن والقبح فیها لا يتعدى اللفظ والجرس ، إلى ما یناجی فیہ العقل والنفس ، ولها - اذا حقق النظر - مرجع إلى ذلك ، ومتصرف فیما هنالك ، منها التجنیس والحشو .

أما التجنیس فإنك لاستحسن تجانس اللفظین إلا إذا كان وقع معنیهما من العقل حمیدا ، ولم یكن مرمى الجامع بینهما مرمى بعيدا . اترك استضعفت تجنیس انی تمام فی قوله :

ذهبت بمذهبه السماحة فالتوت فيه الظنون أمذهب ام مذهب
وقول المحدث :

ناظره فيما جنی ناظره أودعانی امت بما أودعانی

لأمر یرجع إلى اللفظ ؟ ام لانك رأیت الفائدة ضعفت فی الأول ، وقویت فی الثانی ، ورأیتك لم یزدك بمذهب ومذهب على ان اسمعك حروفا مكررة ، تروم لها فائدة . فلا تجدها إلا مجهولة منكرة ، ورأیت الآخر قد اعاد عليك اللفظة كأنه یخدعك عن الفائدة وقد أداها ، ویوهمك كأنه لم یزدك ، وقد أحسن الزیادة ورفاها ؟ فهذه السريرة صار التجنیس وخصوصا المتوفى منه ، المتفق فی الصورة من حلی الشعر ، ومذكورا فی اقسام البديع^(١) .

فانظر إلى عبد القاهر ، كيف جعل الجناس بهذا التخیيل البديع . یعود إلى جانب المعنى ومن قبیل ما تدرك لذته بالوجدان والفكر . لا باللفظ والجرس وذلك بما تتوهمه النفس بدئیا بتكرار اللفظ ، من أنه لاجدید إلا كد الإعادة والتردید ، فإذا نظرت وتأملت ، وجدت من الجدید ما یروق ویعجب ، ویهزها اریحية ویملؤها غبطة .

(١) أسرار البلاغة ص ٤ ، ٥ .

وليس من شك ان المعانى اذا وردت على القلب هذا الورد ، فطالعتة بعد أن خادعتة
هيات لمكانها اعظم موقع ، وحشدت لاستقبالها أكرم حفاوة ، فجاءت كالأمل يقبل
بعد يأس ، والوصل يدنو بعد قطيعة ، فأين من هذه اللذة لذة البيان بعد الإبهام ،
والتفصيل بعد الاجمال والتصریح بعد التلميح ؟ ؟ .

ثم قال فى الحشو والاستعارة وبقية أنواع البديع : وأما الحشو فانما كره
وذم ، وأنكر ورد ، لانه خلا عن الفائدة ، ولم يحل منه بفائدة ، ولو أفاد لم يكن
حشوا ، ولم يدع لغوا ، وقد نراه مع اطلاق هذا الكلام عليه واقعا من القبول احسن
موقع ، ومدركا من الرضى اجزل حظ . ذاك لإفادته اياك من مجيئه مجيء مالا يعول
فى الإفادة عليه ، ولا طائل للسامع لديه ، فيكون مثله مثل الحسنة تأتيك من حيث
لم ترتقبها ، والنافعة اتتك ولم تحتسبها ، وربما رزق الطفيلي ظرفا يحظى به ، حتى
يحل محل الأضياف الذين وقع الاحتشاد لهم ، والأحباب الذين وثق بالأنس منهم
و ٣٣٠ .

وأما التطبيق والاستعارة وسائر أقسام البديع ، فلا شبه ان الحسن والقبح لا
يعترض الكلام بهما إلا من جهة المعانى خاصة من غير أن يكون للألفاظ فى ذلك
نصيب . أو يكون لها فى التحسين أو خلاف التحسين تصعيد وتصويب^(١) .

وهكذا عمد الشيخ إلى أعرق فنون البديع فى شبهة اللفظ وادناها إلى تصوير الخطأ
فيها من الخاصة بله العامة ، وهى التجنيس والحشو وما يجرى مجراها ، مما يصعب
فيه التمييز ويدق الالتباس فجعل حسنها عائدا إلى المعنى بما تثيره فى النفس من ضروب
التخييل والتوهم ، وبما تبعثه فيها من الإقبال بعد الإعراض ، ومن الأنس بعد
الوحشة .

وإذا كان ذلك هو مبعث الحسن فى تلك الفنون فقد نزلت من البلاغة فى أكرم
منزل ، وحظيت من الحسن بأوفر نصيب ، وان هذا التخييل والتوهم باب من ابواب
البلاغة الأصيلة ، وضرب من ضروب البيان الساحر ، وفن لا تكاد شعبه تنتهى
اتساعا ، فنرى فى باب الحذف « تخييل العدول إلى اقوى الدليلين » و « ايهام صون

(١) ص ١٤ ، ١٥ الأسرار .

اللسان عن الذكر ، أو صون المحذوف عن اللسان » ، وترى في باب التقديم « ايها المقدم لا يزول عن المخاطرة ، وانه نصب العين ابدًا ، وايها الاستلذاذ به » وهكذا في كثير من فنون النظم وخصائصه . واذن قد عاد حسن الجناس وما إليه حسنا ذاتيا ، كالحسن في الحذف والذكر والتقديم والتأخير سواء . وليس كما يقول انصار الذات والعرض ، ان الحسن فيها عرض زائد ، كما ستري بعد . بل إن الشيخ ليعتبر تخيل الجناس أصلا يقيس به ، ويعتمد في الإحالة عليه ، قال في التشبيه المعكوس .

« وقد يقصد الشاعر على عادة التخييل أن يوهم في الشيء ، هو قاصر عن نظيره في الصفة ، انه زائد عليه في استحقاقها واستحباب ان يجعل اصلا فيها فيصح على موجب دعواه وشوقه إلى ان يجعل الفرع اصلا ومثاله قول محمد بن وهيب :

وبدا الصباح كأن غرته وجه الخليفة حين يمتدح

فهذا على انه جعل وجه الخليفة كأنه اعرف واشهر واتم وأكمل في النور والضياء من الصباح ، فاستقام له بحكم هذه النية ان يجعل الصباح فرعا ، ووجه الخليفة أصلا . وأعلم ان هذه الدعوى وان كنت تراها تشبه قولهم : لا يدري أوجهه أنور أم الصبح ؟ وغرته أضوأ أم البدر ؟ وقولهم اذا افراطوا : نور الصباح يخفى في ضوء وجهه ، أو نور الشمس مسروق من جبينه ، وما جرى في هذا الأسلوب من وجوه الإغراق والمبالغة فإن في الطريقة الأولى خلاصة وشيئا من السحر ، وهو انه كأنه يستكثر للصباح ان يشبهه بوجه الخليفة ويوهم انه قد احتشد له ، واجتهد في طلب تشبيه يفهم به امره . وجهته الساحرة انه يوقع المبالغة في نفسك من حيث لاتشعر ، ويفيد لها من غير ان يظهر ادعائه لها ، لأنه وضع كلامه وضع من يقس على اصل متفق عليه ويزجي الخبر عن امر مسلم ، لاحاجة فيه إلى دعوى ، ولا اشفاق من اختلاف مخالف ، وانكار منكر ، وتجهم معترض ، وتهكم قائل : له . ومن أين لك ذلك ؟ والمعاني اذا وردت على النفس هذا المورد كان لها ضرب من السرور خاص ، وحدث بها نوع من الفرح عجيب ، فكانت كالنعمة لم تكدرها المنة ، والصنعة لم ينقصها اعتداد المصطنع لها .

وفي هذا الموضع تشبيه بالنكتة التي ذكرتها في التجنيس ، لانك في الموضعين تنال الريح في صورة رأس المال ، وترى الفائدة قد ملأت يدك من حيث حسبتها قد

جازتك واضلتك ، وتجد على الجملة الموجود من حيث توهمت العدم^(١) .
فقد جعل الشيخ بلاغة التشبيه المعكوس ، تشبه بلاغة التجنيس . ففى أى موضع
قد وضع الشيخ بلاغة التجنيس ؟

فإذا اصفنا هذه الفنون التى ذكرها الشيخ هنا ، إلى تلك التى ذكرها هناك لنفى
النظام ، وجعلها فى أعلى درجات البلاغة ، من المزاوجة والمقابلة والتقسيم والجمع ،
استطعنا أن نقول : إن هذه الفنون البديعية أصل كبير من أصول البلاغة الذاتية على
حد تعبيرهم ، وإن لها قيمتها وخطوها فى تصوير المعنى وإداء الغرض ، وإنها تقوم
فى البلاغة على عمد من جنس ما تقوم عليه خصائص التركيب من تقديم وتأخير ،
وحذف وذكر ، وتأکید وتجريد ، وإبهام وبيان ، وإجمال وتفصيل ، وإنبها سواء
فى قوة التأثير وروعة التصوير وما البلاغة إلا ذلك التصوير والتأثير .



(١) اسرار البلاغة ١٩٤ ، ١٩٥ .

- ٢ -

ولعل من العجب البالغ أن يجعل البلاغيون الجناس في صدر البديع اللفظي ، بعد أن انفق الشيخ جهدا بالغا في ابطال ان يكون حسنه من قبيل اللفظ ، وبعد ان أقام الحجة القارعة على ان الحسن فيه راجع إلى المعنى ، حتى يجعل نكته في التخييل والتوهم ، اصلا قاس عليه نكته التشبيه المعكوس . وقد رأيت ان هذه النكته أعلى وأروع من كثير من نكات الحذف والذكر ، والتقديم والتأخير مما مرده إلى التخييل والتوهم .

فهلا - وقد رأوا أن لابد من الخلاف - ردوا على الشيخ حجته . وزيفوا له فكرته ؟ ؟ لا إنهم لم يردوا له حجة ، ولم يقتحموا عليه باب نقاش . بل لم يشيروا إلى أنهم خالفوا ، فكأنهم لم يقرأوا ما كتب الشيخ في ذلك ، أو كأن رأيهم من القلة والفساد ، بحيث لا يستحق ان يشار إليه .

واطرف من هذا ، ان يغفلوا نكته الشيخ هذه في الجناس ، حتى يجيء السبكي ، فينقل عن صاحب « كنز البلاغة » انه قال : ولم أر من ذكر فائدة الجناس ، وقد خطر لي أنها الميل إلى الإصغاء إليه .

وقال في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبِيلٍ يَنْبَغِي ﴾ (٢٢ - النمل) : إن هذا من جنس الكلام الذي سماه المحدثون البديع ، وهو من محاسن الكلام الذي يتعلق باللفظ ، بشرط أن يجيء مطبوعا ، أو يصنعه عالم بجوهر الكلام ، يحفظ معه صحة المعنى وسداده .

ولقد جاءها هنا زائدا على الصحة ، فحسن وبدع لفظا ومعنى . إلا ترى أنه لو وضع مكان (نبأ) بخير . لكان المعنى صحيحا ، ولكنه كما جاء أصح ، لما في النبأ من الزيادة التي يطابقها وصف الحال (٢ / ١٤٢ - الكشف) .

وقال في تفسير الآية الكريمة : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَيْ مَاءَكَ وَيَسْمَأْ أَقْلَيْ ﴾ (٤٤ - هود) إن علماء البيان استفصحوا هذه الآية : ورقصوا لها رؤوسهم ، لا

لتجانس الكلمتين وهما ابلى وأقلعى ، وذلك وان كان لا يخل الكلام من حسن .
فهو كغير الملتفت إليه بازاء المحاسن التى هى اللب وماعدها قشور ، وقد بين محاسن
الآية (١ / ٤٤١) (الكشاف) .

الطباق :

فى الآية الكريمة : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١٣ البقرة) السفه
وهو الجهل ، فكان ذلك العلم معه أحسن طباقا له (١ / ٢٧) (الكشاف) .

تأكيد المدح بما يشبه الذم :

قال فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾
(٨ البروج) ..

وما عابوا منهم وما أنكروا إلا الإيمان ، كقوله :

ولاعيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكنايب
وقال ابن الرقيات :

وما نقموا من بنى امية إلا أنهم يحملون ان غضبوا
(٢ / ٥٣٥) (الكشاف)

اللف والنشر :

هو ذكر متعدد على التفصيل أو الإجمال ، ثم ذكر ما لكل واحد من آحاد هذا
المتعدد من غير تعيين ، ثقة بأن السامع يرد كل شئ إلى ما هو له ، معتمدا على
قرينة لفظية أو معنوية .

ذكر عند تفسير قوله تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ
وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْقُرْآنِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى
سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرٍ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ
عَلَى مَا هَدَيْتُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١٨٥ البقرة) :

ان قوله تعالى : ﴿لَتَكْمَلُوا﴾ علة الأمر بمراعاة العدة و﴿لَتَكْبُرُوا﴾ علة معالم من كيفية القضاء والخروج عن عهدة الفطر ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ علة الترخيص والتيسير ، وقال إن هذا نوع من اللف لطيف المسلك ، لا يكاد يهتدى إلى تبينه إلا النقاب المحدث من علماء البيان (١ / ٨٩ الكشف) .

المشاكلة :

هى ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته ، نحو قول الشاعر :

قالوا اقترح شيئاً نجد لك طبخه قلت اطبخوا لى جبة وقيمصا
أى خيطوا ، وذلك خياطة الجبة بلفظ الطبخ لوقوعها فى صحبة طبخ الطعام .
ومنه قوله تعالى : ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَا أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ حيث أطلق النفس على ذات الله تعالى ، لوقوعه فى صحبة نفسى .

وقد ذكر الزمخشري فى تفسيره للآية الكريمة : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيَى أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ (البقرة : ٢٦) أنه يجوز ان يقول الكفرة : أما يستحى رب محمد أن يضرب مثلاً بالذباب والعنكبوت ؟ فجاءت على سبيل المبالغة ، واطباق الجواب على السؤال ، وهو فن من كلا مهم بديع ، وطرارز عجيب ، منه قول الى تمام :

من مبلغ أفناء يعرب كلها انى بنيت الجار قبل المنزل
وشهد رجل عند شريح فقال : انك لسبط الشهادة ، فقال الرجل : انها لم تجمد
عنى : فقال الله بلادك وقبل شهادته . فالذى سوغ بناء الجار ، وتجميد الشهادة
هو مراعاة المشاكلة ، ولولا بناء الدار لم يصح بناء الجار ، ولولا سبوطه الشهادة
لامتنع تجميدها . ولله در أمر التنزيل واحاطته بفنون البلاغة وشعبها ، لا تكاد
تستغرب منها فنا إلا عثرت عليه فيه على أقوم مناهجه ، وأسد مدارجه (١ / ٤٥
الكشاف) .

وقال فى تفسير الآية الكريمة : ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَا أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾
(١١٦ المائدة) :

المعنى تعلم معلومى ، ولا أعلم معلومك ، ولكنه سلك بالكلام طريق المشاكلة ، وهو من فصيح الكلام وبينه « (١ / ٢٨١ الكشف) .

وقد نقل كلام الزمخشري بهاء الدين السبكي فى كتابه (عروس الأفراح فى شرح تلخيص المفتاح (٤ / ٣١٢ شروح التلخيص) .

الإيغال :

واذا اقتضى المقام الإطناب بالإيغال ، واحتاجت الخنساء ان تكمل بيتها فى اخيها صخر :

وإن صخرًا لتأتم الهداة به كأنه علم فى رأسه نار
فجاءت بنكتة يتم المعنى بدونها لتزيد فى المبالغة بالمدهح . كانت هذه الزيادة واجبة ، وكانت من صميم البلاغة وأصل الحسن ، ثم اذا اقتضى المقام التمثيل ، او الاستعارة لاداء هذه المبالغة ، لم يكن شئ من ذلك واجبا ، ولا من أصل البلاغة والحسن له لأن الإيغال لم يكن سىء الحظ ، فيدخل فى باب اختلاف الدلالة على المعنى الواحد ، كما دخلت فيه الاستعارة والكنية والتمثيل .

وايضا لو اقتضى المقام لطف التعليل لتقرير المعنى والاحتجاج له وتطبيب النفوس به ، أو اقتضى المبالغة المقبولة لترويج المعنى . لم يكن ذلك واجبا ، كما وجبت زيادة المبالغة فى الإيغال ..

وهل ذكرهم التجريد ، وحسن التعليل فى فن البديع ، يخرجهما عن أن يكونا من مباحث علم البيان بابتنائهما على التشبيه ؟ فقول ابنى تمام :

لاتنكرى عطل الكريم من الغنى فالسبيل حرب للمكان العالى

ترى أى فن احق به من الآخر ؟ وهل تستطيع ان تعدده من البديع لما فيه من حسن تعليل ، ثم تدفعه عن البيان مع مافيه من تشبيه ؟ بل لاسبيل إلى جحد ان يعد من المعانى ، لما اشتمل عليه هذا التعليل من تأكيد للمعنى وتقرير ، ومازال عنه من الوحشة والغرابة والاستبعاد ، ولو انك قلت لأنصار الذات والعرض : هبوا الشاعر قال الشطر الأول وسكت فلم يعلل . أكان الذى يضيع من المعنى شيئا ،

عرضيا زائدا فحسب ، فماذا كان يكن الجواب ؟ وماذا كنت ترى من قيمة إذ ذاك لو بقى الشطر الأول هكذا عاريا حائرا ؟ ومثل ذلك تماما قوله :

ليس الحجاب بمقص عنك لى أملا إن السماء ترجى حين تحتجب
وتأكيد المدح بما يشبه الدم :

ثم انظر إلى تأكيد المدح بما يشبه الدم ، من أين جاءه الحسن وهجم عليه الظرف ؟ فانك لا ترى شيئا من ذلك لم يكن طريقه معانى النحو ، لأن الاستثناء هو محض سره ، وباعث نثره ، فان المعروف فى الاستثناء ان ما بعد الأداة يخالف ما قبلها معنى وحكما ، وهناك قد خولف هذا الشرط واطرح . وجاء ما بعد الأداة موافقا لما قبلها ، فالاستثناء قد أوهم المخالفة ولا مخالفة ، بل هى الألفة والموافقة فكان استثناء ولا استثناء ، ووفقا فى صورة خلاف ، ووصالا فى زى قطيعة .

وهكذا اذا نحن استقرينا فنون البيان والبديع ، وجدنا اكثرها من هذا القبيل ، ووجدنا لمعانى النحو فى حسنها حظا ليس بالقليل .

فالعلماء حين قالوا إن هذه الفنون اذا اقتضاها المقام . كانت من علم المعانى ، لم يقولوا إلا الحق . وما يشهد به الواقع كما رأيت ، وذلك هو الذى فعله رب الطبع ، والدوق ، واستاذ البلاغة الأول . حين ذكر كثيرا من فنون البيان والبديع فى دلائل الإعجاز ، وجعلها فى أعلى مراتب النظم ودرجات البلاغة .

ولسنا ندعى أن أنواع البديع كلها سواء فى البلاغة والحسن ، بل نكرر ماقلناه كثيرا ، انها طبقات متفاوتة ، وان منها مايعلو قدره ، وتغلو قيمته ، ومنها ما هو دون ذلك كثيرا ، وان ذلك كان السر فى تعرض الشيخ لبعض منها دون بعض . ثم إذا أردت أن تعرف ذلك صدقا ، وأن منها مالا حظ له فى جمال ولا أثر فى بلاغة ، فارجع إلى ما استدرك به السبكي على الخطيب ، من فنون ذكرها فى شرحه للتلخيص^(١) واكثرها من اختراع هذا العصر الأخير . فإن أردت اعجب مما ذكر السبكي فهناك كتاب جمعه الشيخ الحملاوى ولخصه من كتب المتأخرين وهو كتاب « زهر الربيع » الذى يدرس اليوم فى اقسام الأزهر الثانوية ، ففيه نرى شيئا كثيرا

(١) ج ٤ ص ٤٦٧ ... من شروح التلخيص . ثم المطول مع السيد ص ٤١٦ .

لاقبل للبلاغة ولا لأساليب العربية باحتماله . بل لاجلد للذوق على الاستماع إليه .
ثم نعود فنقول . لم يكن تنويع علوم البلاغة إلى انواعها الثلاثة الا مواضعة
واصطلاحا ، ولم تكن نظرية الدلالات وما تولد منها ولا نظرية الذائق والعرضى ،
والأصلى والكمالى ، الا فلسفة لا تتصل بالبلاغة بسبب ، ولا تحظى من شهادة
الذوق بشيء ، ولا يجد العقل سبيلا إلى الاعتراف بها . فلم تكن الا ظنا وتوها
قد استحکم ، بنوا هم عليه بناءهم على الأصل المحکم فكان مثلهم فى ذلك مثل
النظام ، فيما يحكى عنه تلميذه ، الجاحظ ، أنه كان يتوهم الشيء توها فيقيس عليه
ويفرع عنه ، ثم يتعصب لنتيجة القياس والتفريع ، تعصبه للشيء الثابت المقرر ،
من غير أن يذكر أن الأصل الذى قاس عليه كان ظنا وتوها .

وليس هناك من فرق بين فن وفن ، حين يقتضيه المقام ، ويدعو إليه موقف
الخطاب ، وهذه الفنون جميعها ، اذا أحسن لها اختيار موضعها . وأصيب بها عين
موقعها كانت كلها سواء فى باب الحسن ، وجلال القدر ، وجمال الوقع ، وقوة
التأثير .

ثم انت ترى بعد هذا الذى قدمنا ، وبعد ان انهارت تلك النظريات الوهمية ،
انه لم يعد هناك كثير فائدة فى تقسيم بديع الأوائل ، إلى بيان وبديع . ولا إلى تقسيم
البديع إلى لفظى ومعنوى ، مع اعترافهم بأن اللفظى لا بد ان ينصره المعنى ، فلا
ينفر منه ولا يكره عليه . فهذا الإسراف فى التقسيم والتفريق ، لم يكن الا اثرا لتلك
الفلسفة الغربية . واذ قد بطلت هذه فلا مبرر بعد لبقاء اثراها .

حسن الابتداء :

ثم انهم جعلوا حسن الابتداء والتلخيص والانتهاى ، من أذبال البديع العرضى ،
وقالوا لا بأس بذكرها فى خامته . فلم يعطوها حظ « القلب » فى قول القائل :

مودته تدوم لكل هول وهل كل مودته تدوم ؟

ولاحظ « التشريع » فى بناء البيت على قافيتين يصح المعنى بالوقوف على كل
منهما ، كقول الحريرى :

ياخاطب الدنيا الدنية إنها شرك الردى وقرارة الأكدار

مع ان البلغاء والادباء فى كل جيل وعصر ، على ان حسن الابتداء شعار التوفيق والبراعة ، وامارة الاقتدار فى باب البلاغة ، وان كثيرا من الشعر العالى قد اسقطه سوء الابتداء ، والغفلة عما يوجبه أول الخطاب ، وما ينبغى لحقه من رعاية واعتبار ، والاخبار فى ذلك كثيرة مشهورة .

واذا لم يكن مقام الابتداء من لباب البلاغة ، ولم يكن هو الجدير حقا بالرعاية والعناية ، فأى مقام بعد ذلك تطلب رعايته ، ويجتنب سوء الخطأ فيه ؟ أمقام الحذف اعتمادا على القرينة أم الحذف لرعاية الفاصلة ؟ فهلا كان الاحتفال بالابتداء لأنه أول مايقرع السمع ، ويثير انتباه النفس ، من جنس الاحتفال بالتقديم للاهتمام ، او التفاؤل او الاستلذاذ مما ذكروا فى علم المعانى ؟ ؟

ثم حسن التلخيص هلا ذكروا انه شعبة كريمة من شعب الفصل والوصل ؟ وانه باب من ترابط المعانى وتآلفها وانسجام الصور وتناسقها ؟ وانه من أجل ذلك اعز على البلاغة من كثير من مواضع الوصل بالحروف العاطفة ؟ وان توخى الصواب فيه ، لا يقل شأننا عن توخى الصواب فى مواقع الواو والفاء ؟ وهلا علموا ان الارتباط بين المعانى والأغراض ، افسح مدى واوسع مذهبا من الترابط بذكر الحروف او تركها ؟ وان باب التخلص من غرض إلى غرض فيه لطائف وخيالات جمّة ساحرة . ينبغى ان تكون حليلة فاخرة فى جيد مباحث الفصل والوصل ؟ ؟

وهكذا شحن هذا العصر بأعاجيب فى فن البديع ، لا تنى تطالبك كلما زدته نظرا ، وأوليته عناية ..

وهناك فكرة لهم نحب أن نعرض لها هنا ، هى انهم يشيرون او قل : يصرحون بأن بعض فنون علم المعانى قد تذكر فى الكلام من غير أن يقتضيهما المقام ، فتصبح من أجل ذلك من البديع ، مثل الاعتراض والالتفات والتذييل^(١) والنتيجة المحتومة لهذا القول أن فنون البديع قد تجيء فى الكلام من غير أن يقتضيهما المقام ، وهذا كما ترى اثر من آثار تعلقهم بنظرية الذات والعرض ، وان البديع - ما دام عرضيا

(١) اليعقوبى ج ١ ص ٤٧٣ ، ج ٣ ص ٢٢٤ .

زائدا على البلاغة ، نجىء بعد مطابقة الكلام لمقتضى الحال - يقع في الأساليب من غير أن تدعو إليه حاجة البيان ، وذلك هو الخطأ كله ، لافى شأن البديع فحسب بل في شأن البلاغة كلها ، فذكر مالا يقتضيه المقام أيا كان نوعه أو الغرض منه . يعد خطأ بحثا . وزيادة لغوا ، وكما ان تأكيد الكلام لخالي الذهن ، من غير اعتبار تنزيل يصح ان يكون نكتة له ، يعد خطأ بلاغيا . يجب ان يعد ذكر التنزيل والاعتراض وما إليهما من إيغال والتفات ، وحسن تعليل وطباق وجناس ، وسائر فنون البديع ، خطأ بلاغيا أيضا ، اذا لم يدع إليه المقام ، فإن الحسن اذا زاد على قدر الحاجة انقلب قبحا وتشويها ، وهم قد قالوا : ينبغي ان يقتصر من الكلام على قدر الحاجة ، ولكل مقام مقال ... فالزيادة من غير حاجة لغو وفصول يجب ان تصان عنه البلاغة ، وان يسلم منه البيان وهذا شيء من البدهاة بمكان .

ونحسب انه ما كان ينبغي ان نخرج على امثال هذه الشبه ، ولا ان نسترسل في حرب تلك النظريات ، لولا انها شاعت في هذا العصر ، وانها قد استأثرت منه بمجهود عظيم ، وعدت على البلاغة اشد عدوان والتوت بها في أوعر سبيل ، وانها احلت أعجب فنونها سحرا منازل الضعة والهوان ، وأحالت اكثر فوائدها إلى اصواف وخزف ..

ونحن - على طول ما أبدأنا وأعدنا - لانزال نحس أن في المجال متسعا لاننا لم نزد على ضرب المثل ، لكشف الطريق ، ونصب الصوى ، وتحديد الهدف ، ولأن هذا المجال خاصة . مجال تتسع فيه الحجة وتضيق ، وتبدى عن وجهها وتصد ، مع كثرة الشبه ، وتنوع البدع ، وكشف في حرب الفلسفة المضطربة بضرب من الادلة متسقة او حشد من الخواطر مجتمعة ؟ ؟

هذا هو البديع في هذا العصر ، وذلك مبلغ نظرهم اليه جملة ، من حيث انه فن بلاغى ، ومقدار تصورهم لمكانته واغراضه في الكلام ، وكيف نشأ هذا التصور عندهم ، وكان بعيد الاثر في توجيه دراستهم له وعنايتهم به .





الفصل التاسع

التحليل الأسلوبى لعلم المعانى





اختلف الناس في فهم أساليب الصياغة العربية وأسرارها اختلافا ينم عن فساد الذوق ، واضطراب الثقافة .

روى ابن الأنبارى انه قال : ركب الكندى المتفلسف إلى أبى العباس (ثعلب أو المبرد) وقال له : انى اجد فى كلام العرب حشوا :

فقال : أجد العرب يقولون : عبد الله قائم ، ثم يقولون : « ان عبد الله قائم » ثم يقولون : « إن عبد الله القائم » فالألفاظ متكررة والمعنى واحد .

فقال أبو العباس : بل المعانى مختلفة :

فقولهم : « عبد الله قائم » اخبار عن قيامه ، وقولهم : « إن عبد الله قائم » جواب عن سؤال سائل :

وقولهم : « إن عبد الله لقائم » جواب عن انكار منكر قيامه . فقد تكررت الألفاظ لتكرر المعانى .

قال : فما أحرار المتفلسف جوابا^(١) .

ومن أجل ذلك كانت الغاية من علم المعانى هى تطبيق الكلام العربى على نظرية المطابقة لمقتضى الحال^(٢) وذلك مما احتاجه الفكر العربى فى ذلك الزمن ، ومطابقة

(١) دلائل الإعجاز ص ٢٤٢ :

(٢) الحال هو الأمر المدعى إلى المتكلم ليعتبر مع الكلام الذى يؤدى به اصل المعنى خصوصية ما .. وهذه الخصوصية هى مقتضى الحال ، فانكار المخاطب للحكم مثلا . حال يقتضى تأكيده ، والتأكيد مقتضى الحال .

ومعنى مطابقته له . أن الحال إن اقتضى التأكيد كان الكلام مؤكدا ، وإن اقتضى الإطلاق كان الكلام عاريا من التأكيد ..

فالانكار حال ، والتأكيد مقتضى الحال ، وقولك « إن زيدا فى الدار » مؤكدا بإن كلام مطابق لمقتضى الحال ، يعنى أنه مشتمل عليه ، أى على التأكيد والتحقيق أن مقتضى الحال هو الكلام الكلى المشتمل على الخصوصية ، ومطابقة الكلام لذلك المقتضى هو كون الكلام الجزئى الصادر من المتكلم الملقى إلى المخاطب المشتمل على الخصوصية من افراد ذلك الكلام الكلى الذى يقتضيه الحال ، فإن ذلك المقتضى صادقا عليه - فقولنا « ان زيدا فى الدار مؤكدا جزئى من جزئيات ذلك الكلام الكلى الذى =

الكلام لمقتضى الحال تكون بالنظر إلى احوال اجزاء الجملة ، او الجملة بأسرها ، وبالنظر إلى الجمل او مجموعة منها ، واختيار الحالة التى تتناسب مع ما انت بصدده من معنى تريد تصويره ، والتعبير عنه^(١) .

استعارات القرآن الكريم تعمل على ايضاح المعنى ، حتى يصير ملموساً مأثوساً لدى النفس البشرية^(٢) .

فعلم المعانى فى اخص خصائص النهج على أسلوب المطابقة لمقتضى الحال ، فهو من اخص مقتضيات الأحوال ، ومن أحقها بالرعاية والاعتبار ، ويبدو فى حسن الاختيار لمفردات التركيب ، وان يستعمل المتكلم من الألفاظ ما يناسب المعنى ، وما يحسن السفارة عن الغرض ، فيجعل الفاظ المدح غير الفاظ الغزل ، والفاظ الفخر غير الفاظ العتاب ، فهو فن خصب ممتع . واسع المدى . قوى الأثر . كان على البلاغة ان تعنى به ، وأن تفسح له من مباحثها ارحب مكان .

ولسنا ندعى ان البلاغة قد أهملته الإهمال كله ، ولكننا نقول إنها قد تجاهلت كثيراً من قدره ، وبالأخص بلاغة المتأخرين ، من مثل قول الخطيب فى مقدمة التلخيص « ولكل كلمة مع صاحبها مقام » بل ان الشراح لينحون بهذه الجملة منحى فيه كثير من روح النحو ومن الفروق التى بين وجوهه فجعلوا القصد منها مثلاً ان يكون لأداة الشرط مع الماضى موقع ليس لها مع المضارع ، وان يكون « لأن » مع الفعل موقع يخالف موقع « اذا » معه ، وهلم جرا .

فالبحث عن جوهر المفردات اللغوية وطبيعتها ، ومقدار ملاءمتها للأغراض التى سيقى لها . وهل أدت ببدلوها اللغوى ، واستعمالها العرفى ما نيظ بها من غرض ،

= يقتضيه الحال الذى هو الإطار المقتضى لكلام مؤكد بمطلق تأكيد لا بتأكيد مخصوص .. فقولنا « إن زيدا فى الدار » مطابق له بمعنى أنه صادق عليه أى بمعنى أن الكلام الكلى المؤكد الذى هو مقتضى الحال صادق ومحمول على هذا الجزئى لكونه جزئياً من جزئياته .

فالبلاغة على هذا التحقيق مطابقة هذا الجزئى لذلك الكلى بمعنى كونه جزئياً من جزئياته بحيث يصلح حمل مقتضى الحال عليه . والكلام الجزئى مطابق ، والكلام الكلى مطابق بفتح الباء .

(١) ص ١ محاضرات فى البلاغة العربية للدكتورين : على البدرى - ومحمد جلال الذهبى .

(٢) ص ٩٤ الاستعارة .. د . محمود شيخون - الطبعة الاولى ١٩٧٧ - دار الطباعة المحمدية ..

أم هل قصرت عنه ووقفت دون غايته ، هذا البحث الجليل قد اختفى في بلاغة المتأخرين ، ولم يجد له فيها مكانا ، لافي المعاني ، ولا في البيان والبديع .

أما البلاغة فقد جالت فيه جولات صادقة . وأبدت من الاعتداد به ، مايدل على مقدار مافيه من حياة وقوة ، ومقدار ما لرجالها من مهارة في فهم نواحي الجمال ، وفنون البلاغة في الكلام . فلم تقف عند صور الاستعارة والتشبيه وجملة فنون البديع ، ولا عند صور المعاني في التركيب ، وما يتعاقب على الكلمة من تعريف وتنكير ، أو تقديم وتأخير ، أو حذف وذكر ، بل جاوزت ذلك كله ، وبحثت في جوهر الألفاظ وفي مقدار وحيا إلى الذوق ومبلغ تأثيرها في النفس واعرابها عن القصد ، وكفايتها في أداء الغرض .

نعم ، قد عرض المتأخرون لشيء مما يتصل بطبيعة الكلمة وبنيتها ، ولكنهم لم يزدوا في ذلك على التنافر والغربة ومخالفة القياس ، فأما ما وراء ذلك من رقة وعذوبة يقتضيها المقام في مثل الغزل والعتاب ، والتشوق والاعتذار ، ومن قوة وصلابة يتطلبها الإنذار والتهديد ، والزجر والتخويف ، ومن شرف وفخامة في المدح والرثاء ، وهزل ومجانسة في التهكم والهجاء ، فقد سهوا عنه وقصروا في حقه ، وتجاهلوا من قدره .

ولعل عذرهم في هذا التقصير ، ان هذا الفن من سياسة الألفاظ لا يخضع لقانون يحده ، ولا يمكن أن توضع اليد فيه على أصل ثابت معين ، وإنما أصله وما عليه المعول فيه ، هو الذوق والعرف والاستعمال . وهذه امور لا تنضبط ولا تحدد ، لأنها تختلف باختلاف البيئة والعصر ، والعرف الأدبي والاستعمال السائر . وقد علمنا ان هذا العصر عصر تحديد وحصر ، وتقنين وضبط ، فلا عليه ان يهمل هذا الفن الذي لا ينضبط ..

ولو انهم اخذوا في دراسة البلاغة بمذهب التقريب ، ولجأوا إليه في التعريف والتصوير وقنعوا بذكر المثل والمشاهد والموازنة بين أساليب العرب في أغراضها المختلفة ، لوجدوا في تراث العصر الأول ما يروق ويعجب ، ولبنوا عليه في هذا الفن بناء شامخا ، ولجانبتهم تبعة التقصير في حق كثير من فنون البلاغة العالية .

وإن كتب النقد الأدبي ، وكتب البلاغة الأولى لتفيض بالمثل والشواهد في فن سياسة الألفاظ ، وبالموازنة بين صور الأساليب في الأغراض المتباينة والمعاني الكثيرة ، وقد رأينا في صحيفة بشر بن المعتمر كيف نوه بمشكلة الألفاظ للمعاني ، وبقيمة هذه المشكلة في بلاغة الكلام وتأثيره ثم إن الجاحظ يقول في ذلك: « إن سخيظ الألفاظ مشاكل لسخيظ المعاني وقد يحتاج إلى السخيظ في بعض المواضع ، وربما امتنع بأكثر من امتناع الجزل الفخم ، ومن الألفاظ الشريفة الكريمة المعاني^(١) » .

وترى في وصية أبي تمام للبحترى « فان اردت النسيب فاجعل اللفظ رقيقا ، والمعنى رشيقا ، واكثر فيه من بيان الصبابة ، وترجع الكآبة ، وقلب الأشواق ، ولوعة الفراق^(٢) ... »

ويقول القاضي في الوساطة « وأرى لك أن نقسم الألفاظ على رتب المعاني ، فلا يكون غزلك كافتخارك ، ولا مديحك كوعيدك ، ولا هجاؤك كاستبطائك ، ولا هزلك بمنزلة جدك ، ولا تعريضك مثل تصريحك ، بل ترتب كلا مرتبته وتوفيه حقه ، فتلطف اذ اتغزلت وتفخم اذا افتخرت وتتصرف للمديح تصرف مواقعه ، فان المدح بالشجاعة والبأس . يتميز عن المدح باللباقة والظرف ، ووصف الحرب والسلاح ليس كوصف المجلس والمدام^(٣) ... » .

وهكذا يقول أبو هلال والخفاجي وابن رشيق ، اذ أفردوا كل فن من فنون القول . من الغزل والوصف ، والمدح والهجاء والفخر والرثاء ، وذكروا ما هواملك به واجدر ان يقال فيه^(٤) .

ومن ابين ذلك وادله على ما تريد قول الخفاجي في سر الفصاحة: « وليس يمتنع أن يكون للشيء الواحد اسمان ، يستعمل احدهما في موضع ويستعمل الاخر في

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ١١٠ .

(٢) العمدة ج ٢ ص ٩٢ .

(٣) الوساطة ص ٢٤ .

(٤) الصناعتين ص ٩٧ ، ٩٩ ، ١١٢ ، ١١٤ ، سر الفصاحة ص ١٤٥ ، ١٥٩ ، ٢٤٢ ، ٢٥١ ،

العمدة ج ٢ ص ٩٣ - ١٤٥ .

موضع آخر ، وهذا شيء إنما أصله العرف والعادة ، دون أصل وضع الأسماء في اللغة ، ألا ترى أن الإنسان إذا مدح ذكر الرأس والكاامل والهامة ، وإذا هجا ذكر القفا والأنخداع والقذال ، وإن كانت معاني الجميع متقاربة^(١) .



(١) ص ١٥٦ .



الفصل العاشر

الأسلوبية
بين أنصار اللفظ وأنصار المعنى





يؤكد عبد القاهر أن المعنى هو كل شيء . وأن اللفظ بمعنى الجرس والصوت لا قيمة له ، وإن كانت هناك قيمة فلما يحمل من معنى هذا السؤال في الشكل الذى وصفناه به يتجه إلى ناحيتين : الأولى اللفظ في جرسه وصوته . ووقعه على الأذن . وتأليف حروفه ، وعدم المناقرة فيها . والثانية اللفظ في دلالة على المعنى الذى يحمله بالفعل أو القوة على حد تعبير المناطق ، وتقصد بالقوة ما يمكن أن يخرج به اللفظ إلى المعانى الأخرى التى يتحملها عن طريق الاستعارة والمجاز . أما من الناحية الأولى فينكرها عبد القاهر إنكارا يكاد يكون تاما . لأنه لا يرى في اللفظ ما يوجب الفضل الأدبى من حيث هو جرس وصوت . وهى ناحية لا نسلها بسهولة لعبد القاهر : فما من شك أن هناك الفاظا تحمل في جرسها المعنى الذى أسمع الجرس . والوقع نفسه ، وما أسماء الأصوات ودلالاتها اللفظية على معناها إلا من هذا القبيل . وهناك علم برمته من بين « علوم الملة » على حد تعبير « ابن خلدون » تقتصر مباحثه على مخارج الحروف ، ويقسم هذه الحروف إلى مهموسة ، ومقلقة ، ومستعلاة ، وغيرها مما هو مشهور في مصطلحات التجويد .. وهناك ألفاظ تكاد تكون دلالتها في كل اللغات من أصواتها^(١) وقد عقد لها « ابن جنى » فصلا خاصا في كتابه « الخصائص » . على أن المتبع لعبد القاهر يجد أنه يعترف بهذه الناحية فيجعل لخفة الكلمة . وثقلها على اللسان ووقعها في الأذن ، وزنا في الكلام ولو أنه طفيف لا يرضى عنه في جملة ، ففي آخر كتابه « دلائل الإعجاز ، تقع على النص الآتى : « واعلم أنا لا نأبى أن تكون مذاقة الحروف وسلامتها مما يثقل على اللسان ، داخلا فيما يوجب الفضيلة ، وأن تكون مما يؤكد الإعجاز . وإنما الذى ننكره ونقبل رأى من يذهب إليه أن يجعله معجزا به وحده ، ويجعله الأصل والعمدة فيخرج إلى ما ذكرنا من الصناعات »^(٢) .

وهكذا نرى أنه لا ينكر هذه الناحية الصوتية . أو أنه أجبر أخيرا أمام عبارات القرآن في الأقل . على أن يجد للحروف مذاقا ، وأن يجعل خفتها على اللسان ، ووقعها في الأذان مما يوجب الفضيلة .

(١) وهى بمعنى الصوت والمعنى .

(٢) دلائل الإعجاز صفحة ٣٧٥ .

إن جمال الكلمة وقبحها يأتي إما من ناحية الجرس وإما من ناحية المعنى^(١) ، « فعبء القاهر تكلم في الجرس وعدم العناية به كلاما طويلا ، لا يقوى على انكار كثيره هذا النص الأخير الذى عثرنا عليه في آخر كتابه ، لدعاية المدلول الجرسى ، وإن كان متفقا معهم في المدلول المعنوى الذى قال فيه « متى بن يونس » المعنى أشرف من اللفظ ، واللفظ أوضح من المعنى ، والذى قال فيه « السيرافى » : « اللفظ طبعى والمعنى عقل^(٢) » ، فشخصية عبد القاهر هنا واضحة يستطيع أن يدل على وجودها ، لأنه رجع لمذاقة الحروف وسلامتها من الثقل ، فلم يجعلها وحدها كافية لاثبات المزية التى أرادها « أرسطو » .

أما ناحية المعنى فعبء القاهر محق في تقريرها ، وهو بهذا التقرير يتفق مع ما يراه « علم النفس اللغوى الحديث » . فاللفظ متحمل بمعناه ، ولا يمكن أن تنصور لفظا من غير فكرة ، والفكرة سابقة على اللفظ ، وإذا كان الطفل قادرا على الفهم قبل أن يقدر على الكلام . كان معنى هذا أن فهم مدلول الفكرة سابق على فهم مدلول اللفظ ، ومتى عرضت الفكرة للطفل وتأثر بها عبر عنها أولا بالتعبير الذى يراه من مقاطع تدل على كلمات ، ومن أسماء تدل على أفعال ، ومن كلمات تدل على جمل ، انتظارا للغة الاجتماعية التى يتعلمها بألفاظها وبما تحمله هذه الألفاظ من معان وأفكار . على أن الأفكار متى وجدت لاتعمل وحدها ، ولكنها تتطلع من نفسها بطبيعتها . إلى أن تدرك غايتها . ولا غاية لها إلا فى الحقيقة التى تقرررها بعبارة من العبارات أى بالألفاظ^(٣) فلا بد أن نفهم مع « عبد القاهر » أن المعنى هو المتحكم فى اللفظ ، وهو الذى يستدعيه ، فهى فكرة صحيحة من الناحية العلمية . وإذا نظرنا إلى المسألة من ناحية أخرى وجدنا أن الفكرة (المعنى) لاتستدعى اللفظ اذا كانت جنينية ، أى قبل اكتمال خلقها ، فاذا اكتمل خلقها واجتمعت لها صفاتها ، وحددت تحديدا حقيقيا . أى اذا وصلت إلى منتهاها ، وثبت اليها الكلمة المواتية وثبا . هذا هو مكمن السر فى كلام عبد القاهر حينما يدعو الأديب إلى المعنى . وإلى التفكير فيه ، قبل التفكير فى اللفظ ، فمتى دق المعنى وتحدد ، وانس بالبيئة التى ورد فيها الكلام ،

(١) راجع صفحة ١٥٤ وما بعدها .

(٢) راجع المناقشة بين السيرافى وعلى بن يونس .

(٣) دلائل الإعجاز صفحة ٤٨ .

فثق بأن مرام اللفظ سهل ويسير ، « وكيف يتصور أن يصعب مرام اللفظ بسبب المعنى ، وأنت إذا أردت الحق لا تطلب اللفظ بحاله وإنما تطلب المعنى ، وإذا ظفرت بالمعنى فاللفظ معك وازاء ناظرک » .

ويقول النقاد في هذا المعنى « ان الكلمة ثمرة للفكرة فمتى نضجت الفكرة سقطت كما تسقط الثمرة الناضجة ، ولكنها تسقط على كلمتها » ويقول آخر: وعندما تصل الفكرة إلى تمامها تصبح بكلمتها ، وهو كلام سبق به عبد القاهر « ويقرره قبلهما بقرون ! » .

ونحن هنا مع « عبد القاهر » في فكرته في سبيل نصرة المعنى ، وإلا فكما قلنا إن الفكرة إذا وصلت إلى نهايتها صاحبت بكلمتها ، لنا أن نقول أيضا إن الفكرة لا تصل إلى تمامها ما لم تنجسم في كلمة . بل لنا أن نقول « إن بعض الكلمات تحمل أفكارا كاملة ، لأنها تعتبر نقط ارتكاز للذكاء والتصرف .

« فالفعل أساس في الجملة ، والصفة والظرف يدلان على العلاقات المتصلة بالفعل أو الإسم ، وبعض الكلمات لا تحتاج إليها إلا في تقرير العلاقات المنطقية بين الأفكار ، كالضمائر والحروف وأسماء الإشارة ، فهي روابط للدلالة . وليس لها في ذاتها معنى تام ، لذلك لانحب الإكثار منها » .

والفعل يبحث عن فاعل ، والصفة تبحث عن موصوف ، والظرف يبحث عن مستقر للجملة في الزمان أو في المكان ، وإذا كانت مثل هذه الألفاظ من شأنها أن تحرك الذكاء وأن تشيع الحركة والحيوية في الجملة ، أفلا تكون الألفاظ وبخاصة الأساسية منها هي المتحكمات في المعاني ؟ ! هذا كلام يسر له « عبد القاهر » كثيرا ومن أجله فكر في معاني النحو وخصها بهذه العناية . فلم تبق إذن الاشبهة أن الفكرة لا تظهر إلا إذا تجسست في كلمة ، مع ان رأى « عبد القاهر » كراى غيره من علماء النفس يرى أن الفكرة التامة توجد بكلمتها . ليس هنا من تناقض في الحقيقة ، وإنما هنا نوع من التلازم في تعبير المناطق ، أو من « تداعى الأفكار » في تعبير علماء النفس . فالمعنى يستلزم اللفظ ، واللفظ الدال على معناه لا يفهم وحده فهما تجريديا ، وإنما يستدعى غيره مما يشبهه في الدلالة أو المعنى . وسواء أجب المعنى اللفظ ، أم جلب اللفظ المعنى ، فان ما يريده « عبد القاهر » هو ألا تتحكم الصناعة البديعية

في عبارة الأديب ، فيجتلب لها الألفاظ اجتلابا من غير استدعاء المعاني لها ، على أن اللفظ اذا استجاب للمعنى كان نقطة ارتكاز لما يأتي بعده ليكون عبارة أو اسلوبا ، ومتى وصل اللفظ إلى هذه المرحلة ، دخل في باب المعاني وحسن التأليف ، وقد رأينا أن حسن التأليف في نظرا لآمدى شيخ عبد القاهر ، يزيد في المعنى حسنا ورونقا ، حتى كأنه أحدث فيه غرابة لم تكن وزيادة لم تعهد^(١) » لأن حسن التأليف فيه تصوير ، والتصوير من الخيال ، والخيال نفسه لا يخلو من الفكرة ، كما أن الفكرة لا تخلو من الخيال .

وهكذا خالف « عبد القاهر » كل من يتعلق بالجمال الذي تظهر به الكلمة في جرسها وفي تناسق حروفها ، ورأينا أنه قد رجع عن فكرته في آخر كتابه « دلائل الإعجاز » ولكن بحذر ، ويحفظ العالم الذي يخشى أن تؤثر عبارته على تقرير النظرية التي يهدف إلى اثباتها . ورأينا له رأيا خاصا بالطباق والتجنيس ، فالطباق ضد يميز الأشياء ، والتجنيس مخالفة مداعبة من الأديب للقارئ أو السامع : يكرر الكلمة فيحسبها القارئ كلمة مكررة ولفظة معادة ، ويسارع إلى اتهام الأديب بالتكرار وقلة الفائدة ، ثم لا يلبث بعد أن يعلم أن الكلمة الثانية في الجنس تخالف الكلمة الأولى في المعنى وان تزيت بزيتها ، حتى يرجع إلى نفسه بالتهمة التي وجهها إلى الأديب . ويقول ما أحق ما يقوله وما أصدقه ! أنا الذي أخطأت الفهم لا الأديب .

لقد ظهر عبد القاهر وسط الصراع المحتدم بين أنصار اللفظ وأنصار المعنى ، وكذلك رأى عند الآمدى والقاضى الجرجاني للتأثير النفسى قيمة تقف إلى جانب القيم اللفظية والمعنوية . والتقت هذه الأفكار كلها فيه ، واختلطت بحسه وفكره ووجدانه ، فخرج منها ومما قرأه حول الإعجاز وما أحاط به من الدراسة والتجربة بفكر جديد ، لا يخطئ تاريخ النقد والبلاغة عندما ينسبه إليه . لم ير فضل الكلام وحسنه في الألفاظ ، كما لم يرها في المعاني بالمفهوم الذي استقرت عليه عند المعنويين ، وإنما رآه في الكيفية التي يكون عليها نظم الكلام ، وبذلك استطاع ان يقضى على هذه الثنائية في النقد العربى ، تلك التي جعلت للألفاظ أنصارا ، وللمعاني آخرين ، فكانت جريمة ذلك على البلاغة ان الذين فسدت فيهم حاسة الذوق أهملوا جانب

(١) الموازنة صفحة ١٧٣ .

اللفظ ، والذين ضعفت فيهم ملكة العقل غضبوا من شأن المعنى فضلوا جميعا طريق الأسلوب الحق ، فلا هؤلاء سلموا من معرة العي ولا أولئك سلموا من نقیصة الهذر»^(١) . لقد ادرك بفكره ما أدركه عصرنا الحاضر من صعوبة تقسيم العمل الأدبی إلى لفظ ومعنى ، أو صورة وفكرة . لأنهما « في الأسلوب كل لا يتجزأ ، ووحدة لا تتعدد ، وليس أدل على ذلك من أنك اذا غيرت في الصورة تغيرت الفكرة . واذا غيرت في الفكرة تغيرت الصورة ، فقولك : أعنيك ، غير قولك إياك أعنى ، وقولك : كل ذلك لم يكن ، غير قولك : لم يكن كل ذلك ، فترتيب الألفاظ في النطق لا يكون إلا بترتيب المعاني في الذهن ... »^(٢)

وعبد القاهر ينفي ان تكون معتبرا مفكرا في حال للفظ حتى تضعه بجانبه أو قبله ... والألفاظ اذا كانت أوعية للمعاني فانها لاحالة تتبع المعاني في مواقعها ، فاذا وجب لمعنى أن يكون أولا في النفس ، وجب للفظ الدال عليه ان يكون مثله أولا في النطق ، فأما ان تتصور في الألفاظ ان تكون المقصودة قبل المعاني بالنظم والترتيب ، وأن يكون الفكر في النظم الذي يتوآصفه البلاء فكرا في نظم الألفاظ ، أو ان تحتاج بعد ترتيب المعاني إلى فكر تستأنفه لأن تجيء بالألفاظ على نسقها فباطل من الظن ، وهم يتخيل إلى من لا يوفى النظر حقه^(٣) .

وليس غريبا وقد جعل عبد القاهر مدار الحسن والمفاضلة بين الكلام في النظم ان تتوارى عنده في الظلام قيمة اللفظ المفرد من حيث هو لفظ ، أى قبل دخوله في التركيب والصياغة . وتصبح قليلة الجدوى . لأنه لا مجال للمفاضلة بين الألفاظ هكذا إلا في اضيق الحدود . فليس « الليث » مثلا أدل على السبع المعلوم من « الأسد » وليس « رجل » أدل على معناه من « فرس » على ما سمي به ، ان ما يمكن ان تمتاز به لفظة على أخرى قبل ان يجمعهما النظم ينحصر عنده في « أن تكون هذه مألوفة مستعملة ، وتلك غريبة وحشية ، أو أن تكون حروف هذه أخف ،

(١) دفاع عن البلاغة ص ٦٤ .

(٢) المصدر السابق ص ٦٠ . وانظر التيارات المعاصرة في النقد الأدبي ص ١٨٤ . وأسرار البلاغة

ص ٨ ، ٩ . ودلائل الاعجاز ص ٤٠ . ودراسات في النقد العربي الحديث ص ١٠١ .

(٣) دلائل الاعجاز ص ٤٢ ، ٤٣ . وانظر ص ٣٦ ، ٣٧ .

وامتزاجها أحسن ، بما يكد اللسان أبعد^(١) . كما يدخل في جمال اللفظ أيضا الا يكون « عاميا سخيلا محقة بازالته من موضع اللغة واخرجه عما فرضته من الحكم والصفة ، كقول العامة « انفلت » أو « انفسد^(٢) » ومع وضوح هذه النصوص التي يضعها عبد القاهر في الصدر من كتابيه كما نرى - لبيان قيمة اللفظ المفرد ومع قراءة الدكتور ابراهيم سلامة لنص : « أسرار البلاغة » فاننا نراه في بحثه لموقفه من اللفظ والمعنى من خلال كتابه : « دلائل الإعجاز » يذهب إلى أنه ينكر أن يكون للفظ قيمة من ناحية جرسه وصوته ، وحين عثر قرب نهاية الكتاب على ما يثبت انه يعطيه بعض القيمة حيث يقول : « واعلم انا لانأى ان تكون مذاقة الحروف وسلامتها مما يثقل على اللسان داخلا فيما يوجب الفضيلة ، وأن تكون مما يؤكد امر الإعجاز ، وانما الذى ننكره ، ونقبل رأى من يذهب إليه أن يجعله معجزا به وحده ، ويجعله الأصل والعمدة فيخرج إلى ما ذكرنا من الشناعات . (دلائل الاعجاز ص ٤٠١) - ظن أنه « قد اجبر أخيرا امام اعتبارات القرآن في الأقل على أن يجد للحروف مذاقا ، وأن يجعل خفتها على اللسان ، ووقعها في الأذن ، مما يوجب الفضيلة » (بلاغة ارسطو بين العرب واليونان ص ٢٦٦) ، وانه قد خالف ارسطو فيما يتعلق بالجمال الذى تظهر به الكلمة في جرسها وفي تناسق حروفها ورأينا انه قد رجع عن فكرته في آخر كتابه « دلائل الإعجاز » ولكن بحذر ، وبتحفظ العالم الذى يخشى ان تؤثر عبارته على تقرير النظرية التى يهدف إلى اثباتها (المصدر السابق ص ٢٦٩) وعبد القاهر في الحقيقة لم يرجع في آخر كتابه عن فكرة له في أوله - كما بدا للدكتور - ولم يخش على تقرير نظريته حتى يكون رجوعه بحذر وتحفظ ، فقد كان واضحا من أول الأمر موقفه من قيمة اللفظ المفرد ، وما ذكره في آخر الدلائل ليس الا تأكيدا لما سبق أن ذكره صراحة في أوله ، ولم يتراجع عنه ، وليس في هذا تعارض مع نظريته حتى يخشى منه عليها ، لأنه ليس من انصار المعنى بالمفهوم الذى عرفه عند المعنويين من أمثال أبى عمرو الشيباني - كما سنبين -

ولا تأتى المفاضلة في رأى عبد القاهر الا من خلال النظم وأصدق مثال على ذلك هو ما تراه في الآية الكريمة ﴿ وَقِيلَ يَا رَجُلُ أَأَنبِئَكَ وَيَسْمَاءُ

(١) دلائل الاعجاز ص ٣٦ ، وانظر ٤٧ ، ٤٠١ .

(٢) اسرار البلاغة ص ٩ وانظر البيان والتبيين ج ١ ص ١٤٤ .

أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ^(١) من صور الإعجاز البياني الذي تشعر به عند سماعها ، فلا يمكن أن
ترجع ذلك إلى مفردات الآية دون نظر إلى وضعها في الجملة بلا الأمر يرجع
إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض ، ولم يعرض لها الحسن والشرف إلا من حيث
لاقت الأولى الثانية ، والثالثة بالرابعة وهكذا إلى أن تستقر بها إلى آخرها . فالفضل
ناتج من بينها ، وحصل من مجموعها ، وإن شككت فتأمل : هل ترى لفظة منها
بحيث لو أخذت من بين اخواتها ، وأفردت لأدت من الفصاحة ما تؤديه وهي في
مكانها من الآية ؟ قل « ابلعي » واعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ما قبلها وإلى
ما بعدها ، وكذلك فاعتبر سائر ما يليها...^(٢) » .

ومع أن عبد القاهر قد خرج من قضية اللفظ والمعنى برأى قاطع في النظم حيث
جعله مرجع الفضل والمزية ، ودافع عنه بكل ما أوتي من قوة الحاجة والاقناع ،
حتى أصبح هذا الرأي نظرية تنسب إليه ومقياسا صحيحا للنقد الأدبي ، فاننا نراه
مع ذلك يرفع من شأن المعنى تارة ، ومن شأن اللفظ تارة أخرى ، فمامعنى ذلك ؟
هل يعنى اضطرابا في فكره اوقعه في الخطأ والتناقض ، والاسراف في فهم الناس
كما ذهب إلى ذلك بعض المحدثين ؟^(٣) ، أو أنه يعتبر رجوعا عن نظريته وتحليها عن
التمسك بها والدفاع عنها ؟ ! إن الدراسة الواعية لهذه المشكلة من واقع ما كتبه في
« دلائل الإعجاز » تبين لنا انه لم يقع في شيء من ذلك ، فلم يضطرب فكره ،
ولم يرجع عما اعتقده في امر النظم .

واللفظ يرد في كتاب « الدلائل » مراد به أحد امرين :

- الجانب الصوتي المجرد (صياغة الكلام وصورة معناه)

- وكذلك « المعنى » يراد به أحد امرين :

(١) سورة هود الآية : ٤٤ .

(٢) دلائل الاعجاز ص ٣٦ ، ٣٧ .

(٣) انظر . البلاغة العربية في دور نشأتها ص ١٧٢ ، ومن الجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده

ص ٧٧ . ومذكرات في البلاغة ص ١٢ - ١٥ .

أولاً - الغرض العام والمعنى الغفل بصرف النظر عن جمال الصورة التي يؤدي بها أو قبحتها .

ثانياً - صورة المعنى التي يتحكم فيها نظم الكلام جمالا وقبحا .

فأحيانا يمنع عبد القاهر أن يكون « اللفظ » مرجع الحسن في الكلام ، ويرى المعنى هو المرجع اذ يقول في أعقاب جانب من مناقشته لانتصار اللفظ . وجعله الأمر انك لاترى ظنا هو أنأى بصاحبه عن أن يصح له كلام ، أو يستمر له نظم ، أو تثبت له قدم ، أو ينطق منه الا بالتحال فم ، من ظنهم هذا الذي حلم بهم حول اللفظ ، وجعلهم لايعدونه ، ولا يرون للمزية مكانا دونه . . . فالمزية التي من أجلها استحق اللفظ الوصف بأنه فصيح هي في المعنى دون اللفظ لأنه لو كانت المزية التي من أجلها يستحق اللفظ الوصف بأنه فصيح تكون فيه دون معناه لكان ينبغي اذا قلنا في اللفظ انها فصيحة ان تكون تلك الفصاحة واجبة لها بكل حال ، ومعلوم أن الأمر بخلاف ذلك ..^(١) . فهو حيثئذ يريد « باللفظ » معناه الأول الذي ذكرناه هنا .

ولا يمنع في احيان اخرى ان يكون « المعنى » مرجع هذا الحسن ، ويرى اللفظ هو المرجع اذ يقول : « واعلم ان الداء الدوى والذي اعيا امره في هذا الباب غلط من قدم الشعر بمعناه وأقل الاحتفال باللفظ ، وجعل لايعطيه من المزية ان هو اعطى الا مافضل عن المعنى ، يقول : مافي اللفظ لولا المعنى ؟ وهل الكلام الا بمعناه ؟ فانت تراه لايقدم شعرا حتى يكون قد أودع حكما وأدبا ، واشتمل على تنبيه غريب ومعنى نادر ... والأمر بالضد اذا جئنا إلى الحقائق ... لأننا لانرى متقدما في علم البلاغة الا وهو ينكر هذا الرأي ويعيبه ، ويزرى على القائل به ، ويغض منه^(٢) . فهو حيثئذ يريد « بالمعنى » المفهوم الأول الذي ذكرناه له .

واذا تأملنا فيما ذكرناه عن مفاهيم « اللفظ » و « المعنى » نجدهما يلتقيان في المفهوم الثاني لكل منهما ، ويخضعان بالتالي للنظم باعتباره المحور الأساسي في العملية النقدية ،

(١) دلائل الاعجاز ص ٣٠٧ .

(٢) المصدر السابق ص ١٩٤ ، ١٩٥ .

فلا تناقض اذن ولا اضطراب ، ولا رجوع عما دونه في شأن النظم . ولكن قد يكون من حقنا ان نأخذ عليه عدم تحديد هذه المفاهيم قبل الخوض في مناقشة اصحاب الآراء المخالفة . كما حدد النظم حتى لاتتشعب بنا الآراء من وجهة نظر أصحابها ، فحين تصور وقوفهم بـ « اللفظ » عند الجانب الصوتي . حارب هذا المفهوم له ، وحين وقفوا « بـ المعنى » عندما لم يرده منه حارب ايضا هذا المفهوم له ، وبذلك التقى اللفظ والمعنى في دائرة النظم عنده ، إذ أن الجانب اللفظي الذي دعا إليه ووقف به في وجه أصحاب المعاني الغفل ليس شيئا سوى عملية الصياغة والنظم ، كما أن جانب المعنى الذي دعا اليه أيضا في مواقف اخرى كثيرة ، ليس شيئا سوى المعنى المصور الذي لاوجود له إلا بعملية الصياغة والنظم أيضا . ومن هنا فأنا لا نكون مغالين اذا قلنا : إن عبد القاهر ظل وفيا امينا لنظريته في النظم ، تلك التي قضت - كما سبق أن ذكرنا - على الثنائية بين اللفظ والمعنى . بهذا المفهوم الثاني الذي اراده لهما في ضوء ما بينا . وجمعتهما الصورة في وحدة متلاحمة الأجزاء .

ولقد كان مبعث الخلاف يبين عبد القاهر وخصومه هنا هو انهم لم يروا في الكلام غير اللفظ والمعنى . ومن هنا وقعوا في الخطأ حين ارجعوا الفصاحة إلى اللفظ أما هو فقد رأى في الصورة امرا ثالثا ، من ادركه لم يقع فيما وقع فيه هؤلاء ، ولذا يقرر . إن « أصل الفساد ، وسبب الآفة هو ذهابهم إلى أن من شأن المعاني ان تختلف عليها الصور وتحدث فيها خواص ومزايا من بعد الاتكون ، .. فان جهلهم بذلك من حالها هو الذي أغواهم واستهواهم ، وورطهم فيما تورطوا فيه من الجهالات ، واداهم إلى التعلق بالتحالات ، وذلك انهم لما جهلوا شأن الصورة . وضعوا لأنفسهم أساسا وبنوا على قاعدة ، فقالوا ، إنه ليس إلا المعنى واللفظ ولا ثالث ، وانه اذا كان كذلك وجب إذا كان لأحد الكلامين فضيلة لاتكون للآخر ، ثم كان الغرض من أحدهما هو الغرض من صاحبه . أن يكون مرجع تلك الفضيلة إلى اللفظ خاصة ، والا يكون لها مرجع إلى المعنى من حيث أن ذلك - في زعمهم - يؤدي إلى التناقض ، وأن يكون معناه متغيرا وغير متغير معا . ولما اقرؤا هذا في نفوسهم . حملوا كلام العلماء في كل مانسبوا فيه الفضيلة إلى اللفظ على ظاهره ، وأبوا ان ينظروا في الأوصاف التي اتبعوها نسبتهم الفضيلة إلى اللفظ مثل قولهم : لفظ متمكن غير قلق ، ولا ناب به موضعه ... فيحلموا انهم لم يوجبوا للفظ ما أوجبه من



الفضيلة . وهم يعنون نطق اللسان واجراس الحروف ، ولكن جعلوا كالمواضعة فيما بينهم أن يقولوا اللفظ . وهم يريدون الصورة التي تحدث في المعنى والخاصة التي حدثت فيه . واذا وصفوا العبارة بالحسن فانهم لا يعنون مجرد اللفظ ولكن صورة وخصوصية تحدث في المعنى وشيئا طريق معرفته على الجملة . العقل دون السمع .



الفصل الحادي عشر

عبد القاهر
رائد الأسلوبية في البيان العربي





والإمام عبد القاهر الجرجاني (٤٠٠ - ٤٧٠هـ) علم من أعلام البلاغة والبيان والنقد ، بل هو أبو البلاغة العربية ، ومبتكر نظرياتها عند كثير من الدارسين^(١) .

وقد عاش حياته كلها في جرجان وهي موطن كبير من مواطن الثقافة الإسلامية العربية في إيران في القرن الخامس الهجري (نحو ٤٠٠ - ٤٧١هـ) وألف « المغنى » في شرح الإيضاح لأبي على الفارسي في ثلاثين جزء ، ثم اختصره في كتاب سماه « المقصد »^(٢) بمثابة شرح صغير على الإيضاح ، وألف مختارات من شعر المتنبي والبحترى وأبى تمام ، وكانت ثقافته العربية والنقدية والبيانية أغلب عليه ، ولقب بالنحوى لتفوقه الكبير في النحو^(٣) واستقصائه لأحكامه وعلمه ووجوهه .

وطارت شهرته في كل مكان ، وتصدر حلقات الأدب والعربية في جرجان وقصده الناس للاعتراف من علمه ، والإفادة من فضله ، وتعلمذ عليه كثيرون . منهم : أبو نصر الشجرى^(٤) ، وعلى بن زيد الفصيحى^(٥) ، وسواهما ، قيل عنه أنه فرد في علمه الغزير ، لا بل هو العلم الفرد في الأئمة المشاهير^(٦) ، في العصر السلجوقى .

ومن آثاره الأخرى : « التكملة » وهو ذيل للإيضاح و « الإيجاز » وهو مختصر للإيضاح ، والجمل في النحو ، والتلخيص وهو شرح لكتاب الجمل ، والعوامل المائة ، وكتاب في العروض ، وكتاب العمدة في التصريف . وشرح الفاتحة ، وله شرحان على إعجاز القرآن للواسطى (ت ٣٠٦هـ) أحدهما كبير سماه « المعتضد » ، والآخر صغير ، والرسالة الشافية في الإعجاز ، وقد طبعت مع رسالتين أخريين بعنوان « ثلاث رسائل » علق عليهما محمد خلف الله ، ومحمد زغلول سلام .

(١) ٢١٠ بغية الوعاة للسيوطى ، ٣ : ٢٤٠ شذرات الذهب ، ٣ : ٢٤٢ طبقات الشافعية ، ٢ / ١٨٨ انباء الرواة .

(٢) مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١١٠٣ .

(٣) ٤٤٣ روضات الجنات ٢٠ : ٢٤٢ فوات الوفيات .

(٤) ٢ : ١٩٠ انباء الرواة .

(٥) نزهة الألباب لابن الأنبارى ص ٤٣٤ - ٤٣٦ .

(٦) ١٥٨ دمية القصر .

وطبعت في القاهرة ، وقد طبع كتابه « الطرق الأدبية » وهو مختارات من الشعر ، وطبع في بغداد كتابه « المقتصد » في جزعين بتحقيق ناظر المرجان وهو شرح على الإيضاح .

وله كتابان آخران : أحدهما هو « التذكرة » وذكره مؤلف « انباء الرواة » ، والآخر هو « المفتاح » ذكره صاحب طبقات الشافعية .

وأجل كتبه ، وأعظمها أثرا وأكبرها خطرا وأخلدها على الأيام كتابان هما : « دلائل الإعجاز » ، و « أسرار البلاغة » ، وهما أعظم ما ألف في البلاغة والنقد على مر العصور .

ولقد طارت شهرة عبد القاهر بالبلاغة في كل مكان ، وشهرته بالنقد لا تقل في الحقيقة عن شهرته بالبلاغة ، وكتاباه يحتلان الذروة في كتب النقد العربي ويمثلان منهجا كاملا فيه .

وفي كتابه « أسرار البلاغة » يتحدث عن المعاني الشعرية واقسامها ويخص التشبيه والتمثيل والاستعارة والمجاز والكناية وضروب التخييل بالشرح والإيضاح والبيان .

وفي كتاب « دلائل الإعجاز » ، الذي ألفه عبد القاهر ليحمل مقدمات في دراسة الإعجاز القرآني ، يتحدث عن النظم أو الصياغة كأساس لفهم فضيلة الكلام وبلاغته ، ولفهم إعجاز كتاب الله كذلك ، والكتاب في قمة كتب البلاغة والبيان .

وفي مقدمة « دلائل الإعجاز » يعرف عبد القاهر النظم بأنه « تعليق الكلم بعضها ببعض ، وجعل بعضها بسبب من بعض »^(١) ، ويجعل وجوه التعلق ثلاثة : تعلق اسم باسم ، وتعلق اسم بفعل ، وتعلق حرف بهما ، ويشرح وجوه التعلق شرحا وافيا .

وعبد القاهر يؤكد أن نظم الكلام يقتضى فيه آثار المعاني وترتيبها حسب ترتيب المعاني في النفس^(٢) ، وليس النظم في مجمل الأمر عنده الا أن تضع كلامك الوضع

(١) الدلائل - تعليق المراغى - نشر المكتبة المحمودية .

(٢) ٣٥ المرجع السابق .

الذى يقتضيه علم النحو ، وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف مناهجه فلا تزيع عنها^(١) ، فمداره على معانى النحو وعلى الوجوه والفروق التى من شأنها أن تكون فيه^(٢) وليس هو توخى معانى النحو فى معانى الكلم^(٣) ، فلا معنى للنظم غير توخى معانى النحو وأحكامها فيما بين الكلم^(٤) ، أوفىما بين معانى الكلم بتعبير آخر^(٥) . والفكر لا يتعلق بمعانى الكلمة المفردة مجردة عن معانى النحو أو منطوقا بها على وجه لا يتأتى معه تقدير معانى النحو وتوخيها فيها^(٦) .

والنقاد فى كل اللغات يتفقون على هذا ، فالكلمة عند أفلاطون تعنى الفكرة ذاتها . وحقيقتها الخارجية المتمثلة فى صورة كلمة على السواء ، فالكلمة معناها الفكرة ، وكذلك هى تعنى الفكرة حين تعرض فى الخارج ، فكل فكرة لا يمكن التعبير عنها تعبيرا كافيا إلا بكلمة واحدة ، فحيث ان كل كلمة لها ارتباطات خارجية تختلف حتى مع مرادفها اختلافا بسيطا فانه يتبع ذلك أن استعمال سوى الكلمة التى ترتبط بفكره يعد خطأ ، فتغيير الكلمة معناه تغير فى الفكرة^(٧) .

وعبد القاهر يشير إلى أنه من الضرورى فى معرفة الفصاحة أن نضع اليد على الخصائص التى تعرض فى نظم الكلام^(٨) ، وأن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هى ألفاظ مجردة . ولا من حيث هى كلمة مفردة ، وإنما تثبت لها الفضيلة وخلافها من ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التى تليها أو ما أشبه ذلك ، مما لاتعلق له بصريح اللفظ^(٩) .

(١) ٥٥ المرجع .

(٢) ٦٠ المرجع .

(٣) ٢٣٣ المرجع .

(٤) ٢٣٧ - ٢٥٠ المرجع .

(٥) ٢٣٣ - ٢٥٦ المرجع .

(٦) ٢٥٩ المرجع .

(٧) ٢٧ ، ٢٨ الادب وفنونه - عز الدين اسماعيل .

(٨) ٢٧ المرجع .

(٩) ٣٣ المرجع .

ثم يأخذ في تفصيل أمر المزية ، وبيان الجهات التي منها تعرض ، فيتحدث عن وجوه النظم في التقديم والتأخير ، والذكر والحذف ، والتعريف والتكثير ، والوصل والفصل ، والقصر ، ويفيض في ذكر ضروب من تأكيد الخبر ، ويعرض للتشبيه والتمثيل والكناية والاستعارة والمجاز . مقررًا أن المزية فيها ليست في أنفس المعاني التي يقصد المتكلم إليها بخبر. ولكنها في طريق اثباته لها ، وتقريره إياها^(١) ، وإذا عرض للاستعارة في بيت ابن المعتز المشهور :

سالت عليه شعاب الحى حين دعا أنصاره بوجوه كالدينانير

ويؤكد عبد القاهر أن الاستعارة هنا على لطفها وغرابتها إنما تم لها الحسن بما توخى في وضع الكلام من التقديم والتأخير ، وتجدها قد صلحت ولطفت بمعاونة ذلك ومؤازرته لها^(٢) ، وكذلك يفصل الكلام على مدخل النظم في بلاغة الاستعارة في قوله تعالى : ﴿ وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ ، وقوله ﴿ وَبَحَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ ، ويتحدث عن التشبيه^(٣) في مثل : زيد كالأسد ، وكأن زيدا الأسد ، وأن في المثال الثانى زيادة في معنى التشبيه ليست في الأول وهذه الزيادة لم تكن إلا بما توخى في نظم اللفظ وترتيبه حيث قدم الكاف إلى صدر الكلام وركبت مع « ان » .. كما يتحدث عن ضروب من المجاز العقلى أو المجاز في الإسناد^(٤) ، وعن ضروب الكناية في التشبيه^(٥) ومدخل النظم في بلاغتها .

وعبد القاهر يقرر أن الاستعارة والكناية والتمثيل وسائر ضروب المجاز من مقتضيات النظم ، وعنها يتحدث وبها يكون ، لأنه لا يتصور ان يدخل شيء منها في الكلم وهى أفراد^(٦) فإذا قلنا في لفظ « اشتعل » من قوله تعالى : ﴿ وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ ، انها في أعلى المرتبة من الفصاحة . لم توجب تلك الفصاحة لها

(١) راجع ٤٤ - ٤٧ الدلائل .

(٢) ٦٨ المرجع .

(٣) ١٦٩ المرجع .

(٤) ١٩١ المرجع .

(٥) ١٦٩ المرجع .

(٦) ٢٥٠ المرجع .

وحدها ، ولكن موصولا بها الرأس ، معرفا بالآلف واللام . ومقررنا اليهما الشيب منكرنا منصوبا^(١) ، فليست الفصاحة صفة للفظ « اشتعل » وحده^(٢) .

وعبد القاهر يؤكد في « دلائل الإعجاز » ان المزية للكلام انما هي في نظمه باعتبار ملاءمة معنى اللفظة لمعنى اللفظة التي تليها^(٣) ، وليس الفضل والمزية في الكلام أن تنظر في مجرد معناه^(٤) ، فالفصاحة والبلاغة عبارة عن خصائص ووجوه تكون معاني الكلام عليها ، وزيادات تحدث في أصول المعاني كالذي أريتكم فيما بين « زيد كالأسد » وكأن زيدا الأسد ، ولانصيب للألفاظ من حيث هي ألفاظ فيها بوجه من الوجوه^(٥) ، فأنفس الكلم بمعزل عن الاختصاص والمزية^(٦) ، فليس للفظ من - حيث هو لفظ حسن « ومزية »^(٧) ، اذ المزية ليست لمجرد اللفظ ، وانما تقع في اللفظ مرتبا على المعاني المرتبة في النفس^(٨) ، ويجعل عبد القاهر كذلك ذروة المزية والبلاغة . وهي الإعجاز القرآني ، في النظم وحده ، لافي شيء آخر^(٩) . فلا فضل بين الألفاظ ومعناها عند عبد القاهر ، ولا بين الصورة والمحتوى ، ولا بين الشكل والمضمون ، في النص الأدبي .

وبالبلاغة عند عبد القاهر في النظم لافي الكلمة مفردة ولا في مجرد المعاني ، والباحث عن الإعجاز عليه ان يتبعه في النظم وحده .

والنظم عنده هو توخي معاني النحو وأحكامه وذوقه ووجوهه فيما بين معاني الكلم .

(١) ٢٥٥ المرجع .

(٢) ٢٥٨ المرجع .

(٣) ٣٣ المرجع .

(٤) ١٧ الدلائل .

(٥) ١٧٠ المرجع ،

(٦) ٢٣٣ المرجع .

(٧) ٢٣٥ المرجع .

(٨) ٢ أسرار البلاغة شرح محمد رشيد رضا ، ط ١٩٥٩ .

(٩) ٢٤٦ - ٢٥٧ الدلائل .

ولذلك أخذ عبد القاهر في كتابه « دلائل الإعجاز » يعرض لوجوه تركيب الكلام وفق أحكام النحو ، مستنبطاً الفروق بينها ، عارضاً لأسرار المزية والحسن والبلاغة فيها .

فلسفة عبد القاهر البيانية كما شرحها في « دلائل الإعجاز » تنهض على أساس فكرة النظم^(١) ، وإذا كان هناك من يذهب إلى أن عبد القاهر لم يكن مخترعاً لهذه النظرية ، وإنما كان هو الذى بسط فيها القول ، وأقام على أساسها فلسفة كتابه اذ سبقه إليها الواسطي صاحب كتاب « اعجاز القرآن في نظمه » ، وظهرت هذه الفكرة واضحة في الصراع الذى أثاره امتزاج الثقافات وتعصب حملة اليونانية لفلسفة اليونان ومنطقهم ، ودفاع حملة العربية عن تراثهم وثقافتهم ومنها الثقافة النحوية^(٢) - فإن كتاب الواسطي المفقود لا ينهض حجة على ذلك ، وتعصب المثقفين بالثقافات المترجمة للمعاني ولينطق أرسطو وعدم اهتمامهم بالألفاظ ودفاع علماء العربية عن الأسلوب العربى وتنقصهم لمعاني أرسطو ومنطقه ، كل ذلك لاشبه بينه وبين نظرية النظم عند عبد القاهر ، وعلى أى حال فإننا لا نذهب إلى أن رد البلاغة والإعجاز إلى النظم هو الجديد عند عبد القاهر ولكن الجديد عنده هو شرحه لنظرية النظم هذا الشرح الجديد حقاً ، وتطبيقه عليها ، هذه التطبيقات النقدية البيانية الواسعة ، وفرق على أية حال بين أية نظرية في استنباطها ، وبينها في قمة ازدهارها .

وعبد القاهر لم يخرج بالنظم عن معاني النحو ، وكانت فكرة النظم عنده تقوم على معرفة هذا النحو وما ينشأ عن الكلمات حين تتغير مواضعها من المعاني المتجددة المختلفة^(٣) . وكأن ذلك ليس بالجديد الذى نقصد اهتداء عبد القاهر إليه ، فإن الجديد عند عبد القاهر هو أنه استخدم معاني النحو وأحكامه استخداماً جديداً بيانياً نقدياً محضاً وإلا لكان في النحو غنى عن كل ما قرره عبد القاهر والبلاغيون من أحكام بيانية بلاغية ، وذلك ما يريده عبد القاهر ويؤكد نفيه له في كتابه ، كما يقرر في كل فصل من فصول « الدلائل » أن لا سبيل إلى معرفة الإعجاز إلا النظر في الكتاب

(١) ١٦٣ البيان العربى ، الطبعة الثالثة .

(٢) ١٦٤ المرجع السابق .

(٣) ١٦٧ المرجع .

الذى وضعناه ، واستقصاء التأمل لما أودعناه^(١) ، وانه الطريق إلى البيان والكشف عن الحجة والبرهان^(٢) ، وأن لا معنى لبقاء المعجزة بالقرآن الا الوصف الذى كان له معجزا ، والطريق إلى العلم به موجود أى ممكن ، ويكرر فى الكتاب أنه يقرر أمورا صعبة على الفهم ، وغير ذلك مما جعل عبد القاهر يشحذ ذهنه فى تقريرها ، وذهن القارىء والسامع فى تقبلها لوجه الجدة فيها ، وأنه المبتكر لها .

ويعتمد عبد القاهر على الذوق الأدبى الخالص اعتمادا كلياً فى كل ما قرره من أحكام ، مؤكداً أنه لا يصادف القول فى هذا الباب موقعا من السامع ولا يجد لديه قبولا ، حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة وحتى يكون ممن تحدّثه نفسه بأن لا يومئىء إليه من الحسن واللفظ أصلا ، وحتى تختلف الحال عليه ، عند تأمل الكلام ، فيجد الأريحية تارة ، ويعرى منها اخرى ، وحتى اذا اعجبته عجب ، واذا نهته لموضع المزية انتبه^(٣) .

وعلى أنه ليس لنظرية عبدالقاهر فى النظم من القيمة الرفيعة مالتطبيقاته ، فهناك يظهر ذوقه العربى السليم ، ذلك الذوق الذى لا يمكن ان يغنى فى الأدب عنه شيء ، ونظرية عبدالقاهر فى رمزية اللغة ورد المعانى إلى النظم ومنهجه فى نقد النصوص نقدا موضوعيا ، ماهى إلا مراحل تنتهى به إلى الذوق الذى يدرك الدقائق ، ويحس بالفروق ووجوه الكلام وأسراره .. وإحساس عبدالقاهر الأدبى السليم سابق دائما لعقله . والحكم على النظم عنده هو النظر فى المعنى منظوما ، والذوق هو الفيصل الأخير فى الحكم على هذه الدقائق . وإلى هذا فطن عبدالقاهر بحسه الأدبى الصادق ، فالذوق عند الجرجانى يتحكم فى نظم المعانى التى نعبر عنها، وتسوق فكرة النظم عبدالقاهر إلى تخطى الأعراف والجملة البسيطة إلى الجملة المركبة التى عنى بها فى الدلائل ، وفى أسرار البلاغة كذلك فى مبحث التشبيه عناية قاثفة ونقدها نقداً بينياً أدبيا^(٤) .

(١) مقدمة دلائل الإعجاز .

(٢) مقدمة دلائل الإعجاز .

(٣) ١٩٠ دلائل الإعجاز .

(٤) راجع ١٥٤ - ٦١ . الفصل القيم الذى كتبه محمد مندور فى كتابه فى الميزان الجديد - الطبعة

الثانية - فى الموضوع .

والأدب عند عبد القاهر فن لغوى ، فاختضاع الفكرة أو الإحساس للفظ هو ما يميز الأدب عن غيره من الفنون^(١) ، هذه النظرية الصحيحة هي موضع اعتزازنا بتفكير عبد القاهر الذى يبدأ بنظرية فلسفية فى اللغة ، ثم ينتهى إلى الذوق الشخصى الذى هو مرجعنا الأخير فى دراسة الأدب^(٢) ، وما النقد إلا وضع مستمر للمشكلات البيانية ، فلكل جملة أو بيت مشكلته التى يجب أن نعرف كيف نراها ونصفها ونحكم فيها ، وهذا هو النقد الموضوعى كما رآه الجرجاني^(٣) .

وكتاب « دلائل الإعجاز » يمكن تلخيصه فى كلمتين لم يفت المؤلف أن يذكرهما فى المقدمة- « النحو » و « النظم » فالنحو عرف واستقر قبل عبد القاهر ، وكذلك معانيه عرفت واستقرت ايضا .

والنحو غايته تصحيح المعانى ، وإذا ارادوا صحة التراكيب فلدلالته على المعنى الذى اراده الشاعر أو الذى تتطلبه عبارة النثر ، أما « النظم فهو عند » عبد القاهر « ليس شيئا آخر » سوى تعليق الكلم بعضها ببعض ، وجعل بعضها بسبب من بعض^(٤) . فالنظم فى هذا التعريف كلم أو كلمات ، وتعليق لهذه الكلمات بعضها ببعض ، وبيان لأسباب هذا التعليق ، وإذا كان اللغويون قد بحثوا هذه الكلمات ومدلولاتها ، والنحويون قد بحثوا فى تعليق بعضها مع بعض ، وفى أسباب هذا التعليق أحيانا . فهمة « عبد القاهر » البحث فى ضرورة هذه الأسباب ، وفى الانتحاء بها ناحية جمالية يظهر فيها « الذوق » وثبت لها « المزية » . والذوق والمزية هما الحد الفاصل بين مطلق الكلام ، وبين الكلام الموسوم بالبلاغة . تلك هى القنطرة التى يعبر عليها النحو ليفتح له أبوابا فى البلاغة . وتلك هى الفكرة التى كانت واضحة فى ذهنه ، والتى أشاعها فى كتاب « دلائل الإعجاز » وهى بعينها الفكرة التى قدرها وقررها لبيان إعجاز القرآن ، يرد بها على من تقدمه ، وعلى بعض معاصريه ، ممن تناول هذا الموضوع . فليس القرآن معجزا بالألفاظ فهى فى كل كلام . ويتعجل

(١) ١٥٥ - ١٦٠ المرجع نفسه .

(٢) ١٥٧ المرجع .

(٣) ١٦١ المرجع .

(٤) مقدمة دلائل الإعجاز .

فيقول إنه ليس معجزا بالإعراب ، فليس موضع الفاعلية أو المفعولية في القرآن يغير موضعها في كلام آخر ، وليس الإعجاز في الحقيقة وحدها ، وإلا كانت العبارات المشتملة على الاستعارة خارجة عن حد الإعجاز ، وليس الإعجاز في التصوير وحده ، وإلا خرجت الحقائق ، وليس الإعجاز في الترتيب . فهو موجود في غير القرآن ، وإنما الإعجاز بكل أولئك ، وبشيء زائد لا يوجد في غير القرآن من بين سائر الكلام ، هو المزية الجمالية التي تمنعك أن تغير حرفا عن موضعه ، أو تأتى بكلمة مرادفه لكلمته الأصلية ، والتي إن تجاسرت وتجرات في التصرف خرجت عن مزية فيه لا توجد في غيره ، وخرجت إلى معنى آخر غير المقصود ، وهذا المعنى المقصود لا يستفاد من كلمة أو حرف . بل يستفاد من الجملة كلها ومن العبارة في جملتها .

والإمام « عبد القاهر » لا يفهم من النحو الإعراب « وذلك أن العلم بالإعراب مشترك بين العرب كلهم » وليس هو ، مما يستنبط بالفكر ، ويستعان عليه بالروية ، فليس قول أحدهم بأن إعراب الفاعل الرفع ، أو المفعول به النصب ، والمضاف إليه بالجر ، بأعلم من غيره . ولا ذاك المفعول به مما يحتاجون فيه إلى حدة ذهن . وقوة خاطر ، إنما الذى تقع الحاجة فيه إلى ذلك ، العلم بما يوجب الفاعلية للشيء (لا العلم بموضع الفاعلية) .. وليس يكون هذا علما بالإعراب ، ولكن بالوصف الموجب للإعراب ، ومن ثم لا يجوز لنا أن نعتد في شأننا هذا بأن يكون المتكلم قد استعمل من اللغتين في الشيء ما يقال انهما افصحهما ، وبأن يكون قد تحفظ مما تخطيء العامة ، ولا بأن يكون قد استعمل الغريب ، لأن العلم بجميع ذلك لا يعدو أن يكون علما باللغة^(١) وهو يقول في موضع آخر « لسنا في ذكر تقويم اللسان ، والتحرز من اللحن وزيف الإعراب .. وإنما نحن في أمور تدرك بالفكر اللطيفة ، ودقائق يوصل إليها بثاقب الفهم^(٢) . فإذا قال لك عبد القاهر بعد هذا البيان « ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه علم النحو^(٣) » وجب ان تفهم عنه أنه لا يقصد الإعراب ولا اللغة ، وإنما يقصد « النحو الجمالى » - إن صح هذا التعبير - وهذا النحو لا يهدف إلى موضع الفاعلية أو المفعولية مثلا ،

(١) « دلائل الإعجاز » ص ٢٨٣ .

(٢) « دلائل الإعجاز » ص ٧٣ .

(٣) « دلائل الإعجاز » ص ٦١ .

إنما يهدف إلى موجبهما . وبعيد عن ذهن « عبد القاهر » أن يبدد كل جمال في سبيل هذا « النظم » المبني على مقتضيات علم النحو ، كالجمال اللغوي ، والجمال المعنوي ، والجمال التصويري المبني على الاستعارة والتشبيه ، إنما يريد منك مع اقراره بهذا الجمال الراجع إلى عدة نواح في البلاغة ، أن تراعى معه النظم وأن تجعل الفضل له في النهاية . لأن مزية النظم تفوق كل المزايا الجمالية : فأنت مستطيع اذا تصرفت في المعنى ان تتصرف في اللفظ ، وأن تضع لفظة مكان أخرى تبعا لتغير المعنى ، ومن غير تغيير كبير أحيانا اذا استعملت المترادفات أو المتقاربات من ألفاظ اللغة ، وأنت مستطيع أن تستبدل صورة بصورة أخرى حسب ما يترأى لك في الحقيقة ، أو في الوهم والخيال ، ولكنك لست بمستطيع أن تغير من نظم الكلام إذا أوردته في صورة خاصة ، وفق المعنى الذي تريد وبالألفاظ التي تختار ، لأن تغيير النظم - حتى في حالة احتفاظ الكلام بمعناه - يقلب بلاغة العبارة رأسا على عقب ، ويخرجها في مخرج لا تحس معه نفس الإحساس الأول قبل تغييرك النظم . فمثلا إذا نظرت إلى قول « ابن المعتز » :

واني على اشفاق عيني من العدى لتجمع منى نظرة ثم أطرق

وجدته جميلا ، وجماله لم يأت من التصوير الاستعاري في كلمة « تجمع » وإنما تم الجمال على هذا الوجه من التأليف الذي سيقى على مقتضاه المعانى : فقد ابتدأ البيت بكلمة « انى » ليتسنى له ادخال « اللام » على خبرها وقد ذكر كلمة « منى » وهى تفيد المروق الذى توحى به كلمة « تجمع » ثم ذكر « ثم » التى تدل على أن « الإطراق » جاء بعد فوات الأوان ، ثم ضم كل هذه الدقائق اطار هذه الجملة الاعراضية « على اشفاق عيني من العدى » .

ويمثل عبد القاهر لهذا النظم بيت آخر لابن المعتز :

سالت عليه شباب الحى حين دعا أنصاره بوجوه كالدنانير .

فالجمال التصويرى هنا فى الاستعارة التى فى « سالت » وفى تشبيه الوجوه بالدنانير « وإنما تم الحسن وانتهى إلى حيث انتهى ، بما توخى فى وضع الكلام من التقديم والتأخير وتبديدها (الاستعارة) قد ملحت ولطفت بمعاونة ذلك ومؤازرته لها . وان

شككت فاعمد إلى « الجارين والظرف » فأزل كلا منهما عن مكانه الذى وضعه الشاعر فقل « سألت شعاب الحى بوجه كالدنانير عليه حين دعا أنصاره » ثم انظر كيف يكون الحال وكيف يذهب الحسن والحلاوة ، وكيف تعدم أريجيتك التى كانت ، وكيف تذهب النشوة التى كنت تجدها .^(١) وبهذا التخريج يقف أمام كثير من آى الكتاب مثل ﴿ وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ و﴿ وَبَحَرْنَا الْأَرْضَ عَيْونًا ﴾ و﴿ وَلَكَرْ فِي الْقِصَاصِ حَيوةٌ ﴾ و﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ ﴾ وكثير غيرها .

وعبد القاهر فى سبيل نظريته فى النظم لا يخشى أن يجراً على « الجاحظ » الذى اتخذها اماماً فى دراسته « والذى استهدى بأمثلته فى كثير مما كتب ، فيمدحه اذا كتب وراعى المعنى . وزاوج بين العبارات ، ولم يتطلب لها السجع المتكلف ، ولكنه لا يرى كلامه داخلاً فى باب « النظم » الذى يقرره ، لأنه من الممكن فى نثر الجاحظ . أو فى بعضه فى الأقل . أن تقدم وتؤخر فى جملة ، من غير اخلال بالمعنى لكثرة ما يورده على المعنى الواحد من كثير العبارات ، وبيناً يراه فى « أسرار البلاغة » مثلاً أعلى للعبارات التوائم والتى تتفق بالوداد على حسب اتفاقها بالميلاد » اذ يراه فى « دلائل الإعجاز » « كمن عمد إلى لآل فخرطها فى سلك لا يبغي أكثر من أن يمنعها التفرق ، » و« كمن نضد أشياء بعضها على بعض ، لا يريد فى نضده ذلك أن تجيء له منه هيئة أو صورة ، بل ليس الا أن تكون مجموعة فى رأى العين » . ثم يعتذر له بأن معناه لا يحتاج لأكثر من عطف لفظ على مثله ، وضم الكلام بعضه إلى بعض ، لأن مثل هذا الضم لا يحتاج إلى فكر وروية .^(٢)

وجمال الكلام يريده عبد القاهر أن يكون منسوباً للنظم ولللفظ أيضاً ، ولكن ما ينكره هو أن يراك « قد حفت على النظم فتركته ، وطمحت ببصرك إلى اللفظ ، وقدرت فى حسن كان للنظم ولللفظ ، أنه للفظ خاصة ، لأن اللفظ هو موضع الاستعارة ، وعنده أن الاستعارة فى المعانى لا فى الألفاظ .

(١) دلائل الإعجاز ص ٧٤ .

(٢) قارن بين عبارته عن الجاحظ فى « اسرار البلاغة » ص ٦ ، ٧ وبين ما قاله فى دلائل الإعجاز ص ٧٢ و ٧٣ .

ومن اجل ذلك كله اهتم عبد القاهر بالنحو لا لذاته ولا لإعرابه ، ولا لتحديد أنواعه وكلماته ، بل لوضعه وترتيبه من تقديم وتأخير ، وتمييز وتوكيد اذا عرفت ما يوجب هذه العلل ولم تقتصر على مواضعها فحسب ، ومن هنا تنقلب هذه العلل « نكتا بلاغية » تستحق أن تدرس في البلاغة ، بل تستحق أن تدرس على أنها بلاغة ، وتتخذ لها مكانا خاصا بها لتحسب في باب العلمية وتدون تحت اسم « علم المعاني » وهذا العلم الجديد الذى وضعه « عبد القاهر » بلاغى لالنحو ، وأنه وإن كان فى أصله نحويا فلأن شرط البلاغة صحة التراكيب التى تترتب عليها صحة المعنى ، وهنا يتلاقى النحاة مع المناطقة ، ويتلاقى « عبد القاهر » مع « ارسطو » الذى دون للنحو وهو يكتب فى بلاغة الخطابة وبلاغة الشعر^(١) . وليس الأديب حرا فى التقديم والتأخير ، مثلا ، يمنع تارة ، ويسوغه تارة اخرى ، يجعله مفيدا أحيانا ، ويعريه عن الفائدة أحيانا أخرى ، ذلك اتجاه لا يرضى رجلا منهجيا علميا موضوعيا كعبد القاهر الجرجاني ، ولا يتردد فى اعلان خطئه : « واعلم أن من الخطأ أن يقسم الأمر فى تقديم الشيء وتأخيره قسمين ، فيجعل مفيدا فى بعض الكلام ، وغير مفيد فى بعض ، وأن يعلل تارة بالعناية ، واخرى بأنه توسعة على الشاعر والكاتب ، حتى تطرد لهذا قوافيه ، ولذلك سجعه ، ذلك لان من البعيد أن يكون فى جملة « النظم » ما يدل تارة ولا يدل اخرى »^(٢) .

فاذا أردت الاستفهام بالهمزة وأردت الفعل فقدمه وقل : اكتب ؟ لأنك تريد أن تعلم حصول الكتابة ، فاذا علمت حصولها وشككت فى فاعلها فقل : أأنت كتبت ؟ وللهمزة مذاهب أخرى فى الاستعمال لا بد من معرفتها لتحديد الفكرة التى تريدها ، كما أن للاستفهام معنى يفهم من مفهوم الجملة لا من منطوقها ، وهذه الدلالة بالمفهوم عزيزة جدا لدى البلاغيين ولدى الأدب الذى لا يرضى السفور ، ويرى جماله فى الحجاب فيما يرى « عبد القاهر » فى الأقل : فإذا قلت أأنت تمنعنى حقى ؟ أو أأنت تأخذ على يدي ؟ كان للجملة زيادة على ما تريد من الاستفهام

(١) كتب ارسطو فصلا خاصا بالنحو تكلم فيه عن اقسام الكلمة وعن الفروق بين اقسامها وعن المقاطع والحروف والأصوات وغيرها من المسائل التى رآها ضرورية فى البلاغة. راجع الفقرة الثالثة من الفصل العشرين من كتاب الشعر .

(٢) دلائل الإعجاز ص ٧٢ .

معنى آخر وهو أنك « أقل من أن تمنعني » و « إن غيرك يستطيع الأخذ على يدي لا أنت » وإذا قلت « أأنت تسألني » كان معنى ذلك « أنا أكبر من أن أسأل أمامك » ، وكذلك إذا قلت « أأنا أمانع الناس حقوقهم » ؟ كان معناه « أنا أكبر من هذا ! » واذن تنقل الجملة من الاستفهام النحوي إلى التوبيخ ، ومن التوبيخ إلى التعجب ، وهذا التنقل من انشاء إلى انشاء أو من خبر إلى انشاء ، هو كل ما تريده البلاغة . أو إذا تركت الاستفهام وقلبت في باب آخر وجدت « عبد القاهر » يسير في سبيل واحدة رسمها لنفسه والتزمها . خذ باب « النفي » مثلا ، قرين الاستفهام في اللغة العربية وفي جميع اللغات الحية ، تجد الأمر على ما ذكر ، من أن النحو فيما يريده منه « عبد القاهر » لا يقتصر على دلالة المنطوق وما يفهم من ظاهر التركيب : فاذا قلت لمدعى الإحسان مثلا « انت لاتحسن هذا ! » كانت الجملة أبلغ من قولك « لاتحسن هذا » فقط ، وحتى من قولك « لاتحسن أنت » فالأولى تتوجه مباشرة إلى صلفه وادعائه . ومثل هذا قول الشاعر :

مثلك يثنى المزن عن صوبه ويسترد الدمع من غربه

فليس الغرض الإخبار وحده ، إنما الغرض التعجب ممن كانت هذه مكانته، وفيه زيادة على التعجب ، أن غيره لا يتصف بهذه الصفات ! . وهكذا يدق « عبد القاهر » في تحليل النحو ، وفي اعتصار ما في تركيبه من المعاني البلاغية ، لتحديد « الفكرة » التي هي إحدى عناصر كل أسلوب أدبي .

فما باب القصر الا لتحديد المعنى ، وانصبابه جملة في المسند ، أو في المسند إليه ، أو في الصفة ، أو في الموصوف ، وما باب « الفصل والوصل » الذي عرفت به البلاغة ، فقيل هي « معرفة الفصل والوصل » إلا البحث في أن الجملة تمت بفكرتها ، أو أن في الجملة الثانية ما يمكن أن يتم الفكرة الأولى ، ومن هنا كانت عباراتهم الاصطلاحية في « كمال الاتصال » و « كمال الانقطاع » وشبههما .

على ان « عبد القاهر » مجّد النحو ، في تأليف خاص وجعل له هذه المنزلة في البيان والبلاغة ، بعد أن كان مقصورا على التراكيب وصحة الإعراب في نظر كثير من النحويين في الأقل .

وقد كان « ارسطو » يقول : « إن النحو صلب البلاغة : ويقول لخطباء اليونان :
« تكلموا باليونانية » ..

وقال « عبد القاهر » للبلاغيين : لا تحتقروا النحو ولا تزهّدوا فيه لأن الألفاظ
مغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذى يفتحها ، وأن الأغراض كامنة فيها
حتى يكون هو المستخرج لها ، وأنه المعيار الذى يتبين نقصان كلام ورجحانه حتى
يعرض عليه والمقياس الذى لا يعرف صحيح من سقيم حتى يرجع إليه ، ولا ينكر
ذلك إلا من ينكر حسه ، والا من غالط فى حقائق نفسه^(١) .

والنظم ليس هو اللفظ ، وليس هو المعنى ، ولعبد القاهر موقف من قضية اللفظ
والمعنى ، فإذا كان « ابو هلال العسكري » قد فصل بين اللفظ والمعنى ، واستجاد
العبارات الأدبية للفظها ، بعد ان بين ان المعانى موجودة ، وانها لكل الناس يعرفها
العربى وغير العربى .

فان « عبد القاهر » لا يرضى عن هذا المذهب ولا يستسيغه . ونلاحظ ابتداءً أن
انصار اللفظ وانصار العبارة هم من العرب أو من المتعصبين للعرب ، وأن أنصار
المعنى هم من غير العرب ، فالأمدى والجرجاني يريان أن المعنى لو ترجم إلى أى
لغة من اللغات ما فقد شيئاً من جودته . و « عبد القاهر » يرى أن « الاستعارة
المفيدة » تترجم بلفظها ، ويجب أن تنقل كما هى فى لغتها الأصلية ، لأن الاستعارة
فى نظره جارية فى المعانى لا فى الألفاظ ، والصورة التى جاءت بها الاستعارة لم يمكن
تصويرها إلا بعد ما سارت المعانى من المشبه به إلى المشبه . وأما الاستعارة غير المفيدة
فتترجم بمعناها . أكبر الظن أن للعصبية تأثير فى هذا الموقف بين اللفظين وبين المعنيين
فالأعاجم يعولون على المعانى العقلية وإن لم تقصر بهم عبارتهم بعد أن حذقوا العربية ،
والعرب مندفعون بطبيعتهم إلى العبارة وأن لم تقصر بهم المعانى بعد ثقافتهم وفلسفتها .
هذه الفكرة العابر لاتهم فى موضوعنا بقدر ما يهم فيه أن تقف بين اللفظ والمعنى
موقف الحكم المحايد لترى حقيقة الخلاف ، أهو جوهرى بالصورة التى يصورها
« عبد القاهر » ؟ أم هو لفظى يرجع فى آخر الأمر إلى شىء من التفاهم بين
الطرفين ؟ .

(١) دلائل الإعجاز صفحة ٢٣ و ٢٤ .

واللفظيون لا يرون الشأن للمعاني « التي يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي » وإنما الشأن في جودة اللفظ وصفاته وحسنه وبهائه ، ونزاهته ونقائه ، وكثرة طلاوته ومائه . « ولا يطلبون من المعنى إلا الصواب وبعده عن الاستحالة^(١) .

واللفظيون لا يرون أن الفصاحة هي التلاؤم اللفظي ، وتعديل مزاج الحروف ، حتى لا يتلاقى في النطق حروف تثقل على اللسان كهذا البيت الذي دونه الجاحظ :

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر

والذي قال فيه . مستهزئاً إنه من لغة الجن ، والذي اتخذ منه أحجية فلا يستطيع أن ينطق به فصيح عدة مرات من غير أن يخطيء ، ولقد نقد الجاحظ أبيات ابن يسير :

لأذيل الآمال بعدك إني بعدها بالآمال جد بخيل
كم لها وقفة بباب كريم رجعت من نداه بالتعطيل
لم يضرها والحمد لله شيء وانثنت نحو عرف نفس ذهول

وبخاصة البيت الأخير الذي قال فيه « انك تجد بعض ألفاظه تبرأ من بعض^(٢) ، لاجتماع الزاى والسين والثاء والذال في جملة واحدة .

واللفظيون لا يرون أننا إذا راعينا المعاني فقط صعب علينا « النقد الأدبي وصعب علينا مراعاة التعادل بين الحروف والألفاظ ، فعند اتفاق المعنى نعلم حتماً إلى شيء من الموضوعية في المقابلة بين ألفاظ الشعارين ، وهذه الألفاظ كما رأينا عند « عبد القاهر الجرجاني » ترقق وتتحضر وتنخير .

فاذا راعينا المعاني وحدها فقد النقد الأدبي جزءاً مهماً من موضوعه ، واقتصر على المعاني ، وهي نفسية من الصعب تحديدها ، وإيجاد مقاييس خاصة بها ، كهذه المقاييس التي تخضع لها الألفاظ .

(١) الصناعتين صفحة ٢٤ . (٢٤) بلاغة ارسطو .

(٢) البيان والتبيين صفحة ٢٧ ج ١ « دلائل الإعجاز صفحة ٤٤ و ٤٥ » .

ويرى اللفظيون أيضا : أنا أبواباً كثيرة من أبواب الأداء الأدبي ترجع إلى اللفظ ، فالوزن والسجع لا وجود لهما إلا بالألفاظ المشتركة في المبنى المختلف المعنى ، والترصيع والتجنيس يحتاجان إلى الألفاظ الواحدة ، أو المؤتلفة في وقعها على السمع مع اختلاف معانيها . فهناك أبواب بلاغية وأدبية إذا انتزعنا منها الألفاظ فقد انتزعنا الحجر الذي تستند إليه . بل أضعنا سبب وجودها !

وإذا كانت الألفاظ لا مزية لها ، وكانت المزية للمعنى وحده ، فلم قال النقاد « لفظة فصيحة » ولم يقولوا « معنى فصيح » و « كلام فصيح » ؟ ولم قالوا « معنى لطيف » و « لفظ شريف » و « لفظ متمكن » و « لفظ قلق » ؟ ولم امتدح الناس الشعراء باللفظ ؟ بل لم امتدح الشعراء أنفسهم باللفظ ؟ فيقول البحترى مثلاً :

بمنقوشة نقش الدنانير يتتقى لها اللفظ مختاراً كما يتتقى التبر
وللبحترى :

حجج تخرس الألد بألفا	ظ فرادى كالجوهر المعدود
ومعاني لو فصلتها القوافي	هجنت شعر « جرول » و « لبيد »
حزن مستعمل الكلام اختياراً	وتجنبن ظلمة التعقيد
وركن اللفظ القريب فأرك	ن غاية المراد البعيد
كالعذارى غدون في الحلل الصف	ر إذا رحن في الخطوط السود

وإذا كان الأمر كما قلنا فلم لا يكون للفظ مزيته ؟ والألفاظ جواهر في نظر الشعراء ، والمعاني لاقيمة لها إلا بحيازة اللفظ السائر المطاوع ، وأوضح المعاني يقع في ظلمة التعقيد اللفظي ، والمعنى البعيد يصل إلى غايته على مركب اللفظ الغريب ، وأخيراً إذا كانت المعاني عذارى فلم لاتلبس انيق الملبس من الألفاظ ؟ ! على أنه لم يغب عن « عبد القاهر » حجة واحدة من هذه الحجج « ونصب نفسه لدحضها والرد عليها ، وارجاعها إلى ما يريد من نصرة المعنى ، فهو يرى أن الشأن كله للمعاني ، وأن الألفاظ تقع مرتبة على الورق ، وإذا كانت معاني هذه الألفاظ منظمة في ذهن الخطيب ، مرتبة في ذهن الكاتب وأن اللسان يجري بها مرتبة إذا كانت معاني هذه الألفاظ منظمة فاذا رتبت المعاني ترتيبها الطبيعي . حصلت على صورة

خاصة في التأليف يرجع الحسن فيها إلى ترتيب المعاني . لا إلى انتقاء الألفاظ : « فإذا رأيت البصير بجواهر الكلام يستحسن شعرا أو يستجيد نثرا ، ثم يجعل الثناء عليه من حيث اللفظ فيقول : حلو رشيق ، وحسن أنيق وعذب سائغ ، وخلوب رائع ، فأعلم أنه ليس ينبئك عن أحوال ترجع إلى أجراس الحروف ، وإلى ظاهر الوضع اللغوى ، بل إلى أمر يقع من المرء في فؤاده ، وفضل يقتدحه العقل من زناده . وأما رجوع الاستحسان إلى اللفظ من غير شرك من المعنى فيه ، وكونه من أسبابه ودواعيه فلا يكاد يعدو غمطا واحدا ، وهو أن يكون اللفظ مما يتعارف الناس في استعمالهم ، ويتداولونه في زمانهم ، ولا يكون وحشيا غريبا أو عاميا سخيفا^(١) » . وهو نص ثرى كل الثراء في دلالاته :

لان الجمال الأدبى فى نظره لا يرجع إلى جرس الحروف وطنينها . وإنما يرجع إلى المعنى والسياق ، وهذا المعنى إما وجدانى « يقع من المرء في فؤاده » ، وإما عقلى « يقتدحه العقل من زناده » والوجدان والعقل يتحركان بالمعنى في نفس الأديب ، ويميلان ما يقتضيه هذا المعنى من الألفاظ . ولأن الجمال الأدبى لا يرجع إلى ظاهر الوضع اللغوى ، حتى يكون الأدب فى الكلمات اللغوية ، وفى انتقائها وكثرتها ، فالأمر كما قال « الجاحظ » اذا كثر الأدب وفلت القرينة كان وجود الأدب شرا من عدمه .

وكما أن الأدب لا يكون فى الألفاظ اللغوية وكبكتها. لا يكون فى الوقوف به عند ظواهر الأوضاع اللغوية ، والا بطلت الصور فى الأدب من استعارة وتشبيه فما الاستعارة والمجاز إلا خروج على الأوضاع اللغوية بمناسبة ومقتضى يلائمان ما بين المعانى المنقولة منها الألفاظ ، إلى المعانى المنقولة اليها .

اما عناية الأدباء بالألفاظ ، واضفاؤهم عليها وحدها صفات خاصة من الحسن والرشاقة فشبهة نترك لعبد القاهر شرحها كما أراد : « وسبب دخول الشبهة على من دخلت عليه ، أنه لما رأى المعانى لاتتجلى للسامع إلا من الألفاظ ، وكان لا يوقف على الأمور التى بتوخيها يكون النظم إلا بأن ينظر إلى الألفاظ مرتبة على الانحاء التى يوجبها ترتيب المعانى فى النفس ، وجرت العادة بأن تكون المعاملة مع الألفاظ .

(١) اسرار البلاغة صفحة ٢ ، ٣ ، ١٩٢٥ .

فيقال : قد نظم ألفاظا فأحسن نظمها ، وألف كلما فأجاد تأليفها ، جعل الألفاظ الأصل في النظم وجعله يتوخى فيها أنفسها ، وترك أن يفكر في الذى بيناه^(١) .

وعبد القاهر يعترف بأن في الأمر شبهة ، ولا ينكر قيمة الألفاظ جملة ، إنما يريد أن يحدد مكائنها في النظم . ويقر كل القرار من أن تكون المزية البلاغية في اللفظ وحده ، أو في اللفظ من حيث هو حروف وجرس وصوت ، وإلا بطل الإعجاز في القرآن اذا أتى المعارض بألفاظ تشبه ألفاظ القرآن عن طريق المحاكاة وهو لا ينكر كلام القدماء إذا قسموا الفضيلة البلاغية بين اللفظ والمعنى فقالوا « معنى لطيف ولفظ شريف » لأنهم يريدون ترتيب الألفاظ حسب ترتيب الفكرة ، ومع التجوز حذفوا « الترتيب » فقالوا: « اللفظ والفكرة » أو « اللفظ والمعنى » فإذا قالوا بعد ذلك « لفظ متمكن » أرادوا أن معناه غير ملائم لما يليه ، ولما سبقه وإذا قالوا لفظ قلبي ناب ، فهو غير مطمئن في موضعه^(٢) .

أما قول أنصار اللفظ إن أبوابا كثيرة من أبواب الأداء الأدبي ترجع مباشرة إلى اللفظ كالسجع والترصيع والطباق والتجنيس ، فقول يتكفل « عبد القاهر » بالرد عليه في كتابه « أسرار البلاغة » ويعرضه في جدل المقتنع ، بل في جدل الرجل الدينى الذى ينافح عن غاية بعيدة هى إعجاز القرآن . فكل هذه المحسنات « لا يرجع الحسن والقبح فيها إلى اللفظ والجرس ، بل إلى ما يناعى العقل والنفس » فالتجنيس مثلا لا يستحسن إلا إذا كان موقع اللفظين من العقل موقعا حميدا ، ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيدا ، فإذا استضعف النقد واستضعف معهم « عبد القاهر » تجنيس أبى تمام في قوله :

ذهبت بمذهبه السماحة فالتوت فيه الظنون أمذهب أم مذهب

وإذا استحسن عبد القاهر التجنيس في قول القائل « حتى نجا من جوفه وما نجا »^(٣) وفي قول أبى الفتح البستى :

(١) دلائل الإعجاز صفحة ٢٥٨ ، ٢٥٩ .

(٢) دلائل الإعجاز صفحة ٢٥٨ ، ٢٥٩ .

(٣) في طبعة الشيخ رشيد رضا (خوفه) بدلا (جوفه) .

أسرار البلاغة صفحة ٤ هامش ٣ .

ناظره فيما جرى « ناظره » أو دعاني أمت بما أودعاني

فليس الاستضعاف والاستحسان راجعين إلى اللفظ . بل لأنك رأيت الفائدة ضعفت عن الأول وقويت في الثاني ورأيتك لم يزدك بمذهب ومذهب^(١) على أن اسمك حروفا مكررة ، تروم لها فائدة فلا تعدها إلا مجهولة منكورة ، ورأيت الآخر قد أعاد عليك اللفظة ، كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها ويوهمك كأنه لم يزدك وقد أحسن الزيادة ووفاه ، فهذه السريرة صار التجنيس من حلي الشعر ، ومذكورا في اقسام البديع^(٢) .

وهكذا يدافع « عبد القاهر عن أشبه اللفظيين بمثل هذا الدفاع .



(١) لانوافق عبد القاهر وغيره من نقاد هذا البيت الذي أحسن فيه (أبو تمام) الزيادة وونها ذلك لانه لما قال : (ذهب بمذهبه أن السماحة) خطر له مذهب السماحة .
(٢) عبد القاهر (أسرار البلاغة) صفحه ٣ .



المراجع

- (١) القرآن الكريم .
- (٢) نقد النثر - د. طه حسين - طبعة ١٩٣٩ .
- (٣) المدارس النقدية الحديثة - م. هـ. ابرامز - ترجمة د. عبد الله معتصم الدباغ .
- (٤) الأسلوب والأسلوبية - د. أحمد درويش .
- (٥) الخطابة لأرسطو - د. محمد غنيمي هلال .
- (٦) علم الأسلوب - د. صلاح فضل .
- (٧) الأسلوبية والأسلوب - د. عبد السلام المسدي .
- (٨) التفسير الإعلامي للأدب - د. عبد العزيز شرف .
- (٩) المدخل إلى وسائل الإعلام - د. عبد العزيز شرف .
- (١٠) معجم لمصطلحات النقد الحديث - حمادى صمود .
- (١١) مشكلة البنية - د. زكريا إبراهيم .
- (١٢) الصناعتين - أبو هلال العسكري .
- (١٣) المثل السائر .
- (١٤) ضحى الإسلام - أحمد أمين .
- (١٥) البلاغة العربية فى دور نشأتها - د. سيد نوفل - طبعة ١٩٤٨ .
- (١٦) النثر الفنى .
- (١٧) تاريخ البلاغة العربية - أ. أحمد شعراوى .
- (١٨) مقدمة ابن خلدون .
- (١٩) بحوث وآراء فى البلاغة - أ. أحمد المراغى .
- (٢٠) النقد التحليلى عند عبد القاهر - د. الصاوى - طبعة ١٩٧٩ .
- (٢١) الأسلوب للشايب - طبعة ١٩٦٦ .
- (٢٢) دفاع عن البلاغة - أ. أحمد حسن الزيات - طبعة ١٩٤٥ .

- (٢٣) الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث للسحرتى - طبعة ١٩٤٨ .
- (٢٤) فن الشعر لأرسطو .
- (٢٥) بيان إعجاز القرآن - أبو سليمان الخطابى .
- (٢٦) النكت فى إعجاز القرآن - أبو الحسن الرمانى .
- (٢٧) إعجاز القرآن - أبو بكر الباقلانى .
- (٢٨) كتاب التمهيد - أبو بكر الباقلانى .
- (٢٩) نكت الانتصار لنقل القرآن - أبو بكر الباقلانى .
- (٣٠) المغنى - للقاضى عبد الجبار .
- (٣١) أصول البلاغة للبحرانى - تحقيق د. عبد القادر حسين .
- (٣٢) دلائل الإعجاز . عبد القاهر .
- (٣٣) الموازنة للآمدى .
- (٣٤) البيان والتبيين للجاحظ .
- (٣٥) النحو والنحاة .
- (٣٦) أسرار التركيب البلاغى - د. سيد عبد الفتاح حجاب .
- (٣٧) المطول بحاشية السيد .
- (٣٨) الأدب وفنونه - د. عز الدين إسماعيل .
- (٣٩) فى الميزان الجديد - د. محمد مندور .
- (٤٠) الإمتاع والمؤانسة - للتوحيدي .
- (٤١) العمدة .
- (٤٢) بغية الوعاة - للسيوطى .
- (٤٣) شذرات الذهب .
- (٤٤) فوات الوفيات .
- (٤٥) نزهة الألباب - لابن الأنبارى .
- (٤٦) روضة الجنات .
- (٤٧) دمية القصر .

* * *

الفهرس

الموضوع	الصفحة
تصدير	٥
الفصل الأول : الأسلوب والأسلوبية في ضوء النقد الحديث	٩
الفصل الثاني : جذور الأسلوبية في البيان العربي	٢٥
الفصل الثالث : الأسلوبية ومصطلح الصياغة	٣٩
الصياغة أو النظم عند عبد القاهر	٤٧
الفصل الرابع : النظم والصياغة في البلاغة العربية	٦١
النظم	٦٧
البديع	٦٨
الصياغة عند عبد القاهر	٧١
الفصل الخامس : النظم عند عبد القاهر	٧٥
الفصل السادس : جذور الأسلوبية في دلائل الإعجاز	٨٣
مصادر فكر عبد القاهر البلاغى	٩٥
عبد القاهر والقاضى الجرجانى	٩٦
بين عبد القاهر وابن سنان	١٠١
الفصل السابع : أنماط الأسلوبية في أسرار البلاغة	١٠٥
الفصل الثامن : التحليل الأسلوبى للبديع البلاغى	١١١
اللف والنشر	١٢٣
المشاكلة	١٢٤
الإيغال	١٢٥
حسن الابتداء	١٢٧
الفصل التاسع : التحليل الأسلوبى لعلم البيان	١٣١

الفصل العاشر : الأسلوبية بين أنصار اللفظ وأنصار المعنى	١٣٩
الفصل الحادى عشر : عبد القاهر رائد الأسلوبية فى البيان العربى	١٥١
المراجع	١٧١
الفهرس	١٧٣

* * *



رقم الإيداع : ١٩٩١ / ٩٧٢٤
الترقم الدولي : ٩٧٧-٥٠٨٣-٦٩-٩

تجهيزات أوفت

جهاد

٣٣ شارع مسان - الزيتون - القاهرة

طبع بالمطبعة الفنية ت ٣٩١١٨٦٢

هذا الكتاب

سفر جديد فى البلاغة العربية قام على تأليفه ثلاثة من المتخصصين فى هذا الفن ، فجاء على خير ما يرام منه : سلاسة فى الأسلوب ، وسبك للعبارة ، ووضوح فى الرؤية ، كل ذلك نتيجة ثقافة واسعة فى هذا الفن ، وطريق معبدة من المعرفة التى يتمتع بها المؤلفون الثلاثة .

والكتاب - كما هو واضح من عنوانه - من الكتب المتخصصة التى تسد نقصاً فى المكتبة العربية إضافة وإيضاحاً ويلقى شعاعاً من التعريف بهذا العلم الذى قد تخفى دقائقه على بعض المثقفين أحياناً ، ويضم إجابات كانت مستعصية على الدارسين المهتمين بهذا اللون فى اللغة العربية .

الناشر



طباعة • نشر • توزيع

١٦ شارع عبدالحق لروت - المليون ٣٩٢٣٥٢٥ - ٣٩٢٣٦٧٣ - فاكس : ٣٩١٠٩٦١٨ - برعاً : دار خادر - ص.ب : ٢٠٢٢ - القاهرة

AL-DAR AL-MASRIAH AL-LUBNANIAH

PRINTING — PUBLISHING — DISTRIBUTION

16 ABD EL KHALEK SARWAT St. P.O.Box 2022-Cairo-Egypt PHONE: 3936743-3923525 FAX: 3909618 CABLE DARSHADO